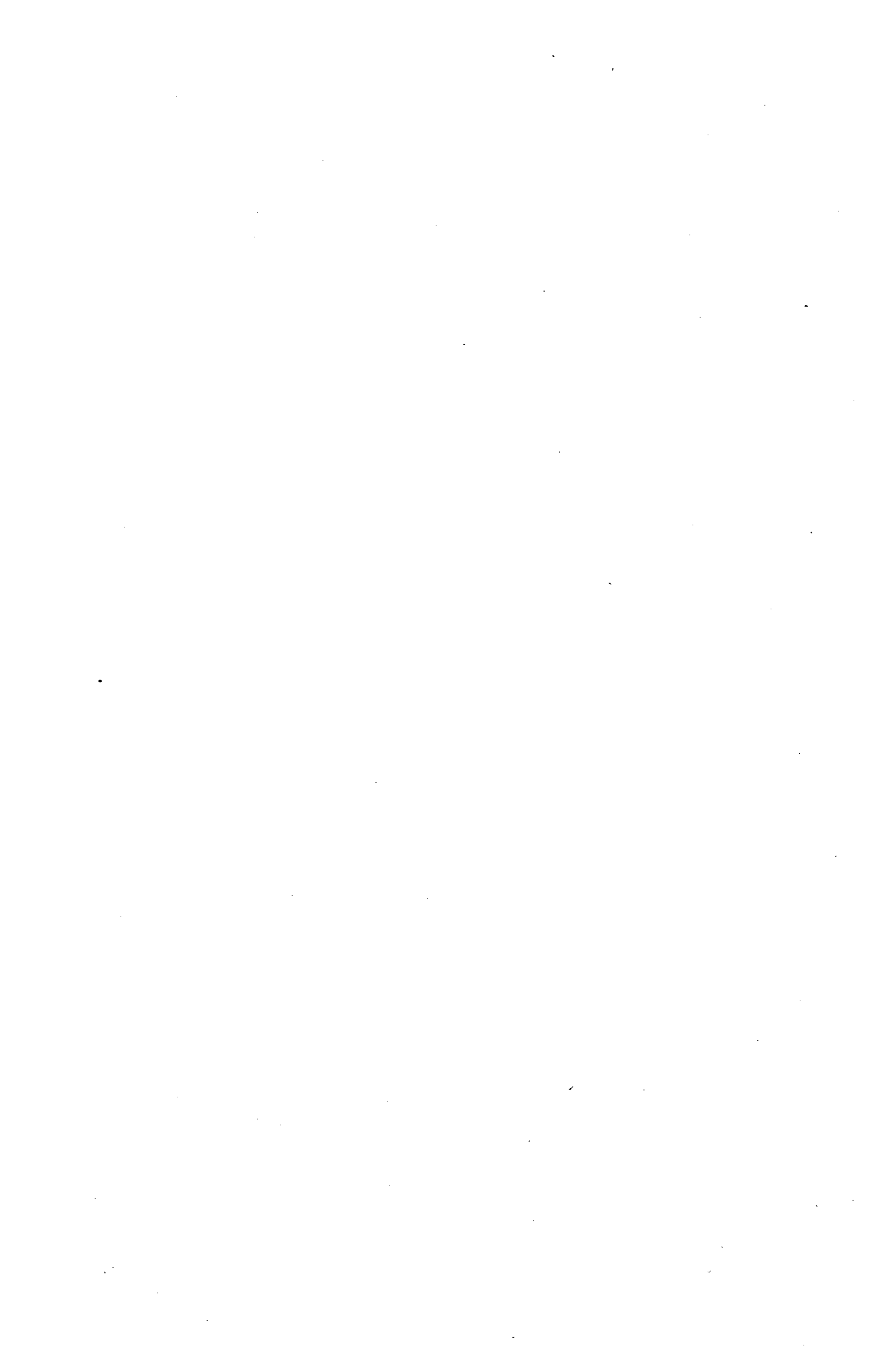
أبو محمد الحريرى

صاحب المقامات

بقلم

دكتور أحمد أمين مصطفى

بسم الله الرحمن الرحيم



مقـــدمة

ظهر فن « المَقَامَة » فى العصر العباسى فى القرن الرابع الهجرى على يد بديع الزمان الهمذانى ، وهو الذى اختار لفظ «مقامة» لحكاياته التى كان يمليها فى مسجد نيسابور ، ثم ظهر الحريرى فى القرن الخامس ، وكتب مقاماته فى أواخر هذا القرن ، ونالت مقاماته شهرة واسعة ، وفضلها بعض الأدباء على مقامات البديع ، وجاء بعدهما عديد من الأدباء الذين كتبوا مقامات على هدى مقامات البديع والحريرى ، ولكن أحدًا لم يبلغ شَأْوَهما .

وقد عُرف لفظ «مَقَامَة» فى العصر الجاهلى ، وجاءت الكلمة بمعنى المجلس وبمعنى الجماعة الجالسين فى المجلس ، قال زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقاماتٌ حِسَـانٌ وجوههم ... وأنْـديـةٌ يَنتَابُـهَا القـولُ والفعـل

وفى العصر العباسى استُعملت الكلمة فى المعنى الأدبى ، ووردت بمعنى الحديث الأدبى المكتوب ، واستخدمت أيضًا لتدل على الحديث الذى يُلقى فى المجلس وبهذا المعنى استخدمها بديع الزمان فى المقامة الوعظية، إذْ رأى عيسى بن هشام شخصًا يلقى حديثًا فى المجلس ، فقال لبعض الحاضرين : مَنْ هذا ؟ قال : غريبٌ قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه إلى آخر مَقَامَته .. واستعمل هذا اللفظ فى حديث السائلين

الذى يُلقى فى جماعة فى شكل قصصى يهتم بالأسلوب ، ويتخذ راوية وبطلا .

ويرى بعض الأدباء أن القصة العربية الحديثة نشأت متأثرة بالمقامة ، وهو رأى وجيه ، فكثير من المقامات تنطوى على عنصر قصصى أو مسرحى، ولا نستطيع أن نطبق هذا على جميع المقامات ، وقد رأينا أن نكتب عن أبى محمد الحريرى ومقاماته حتى يعرف الناشئون فنًّا من فنون الأدب العربى خفى على كثير منهم . وبالله التوفيق .

« **د . أحمد أمين مصطفى** »

حياته وصفاته

تحدثت مصادر عديدة عن الحريرى ، ولم تختلف هذه المصادر حول حياته ، ونعتمد هنا أساسًا فى الحديث عن حياته على ثلاثة مصادر هامَة هى : كتاب « وفيات الأعيان » وكتاب « معجم الأدباء » والمقدمة التى تتصدر مقاماته .

وهو أبو محمد القاسم بن على محمد بن عثمان الحريرى البصريُّ الحرامىُّ ، ولد سنة ٤٤٦ هـ وتوفى سنة ٥١٦ هـ كما تذكر معظم المصادر ، ويحدد صاحب معجم الأدباء تاريخ وفاته فيقول : إنه توفى فى السادس عشر من رجب سنة ٥١٦ هـ .

وكان مولد الحريرى بضاحية من ضواحى البصرة تسمى « الْمُشَان » ، وبها كانت ملاعب صباه ، ولما شَبَّ تحول عنها إلى البصرة ونزل بحىٍّ فيها يسمى « بَنِى حَرَام » ، وبنو حَرام قبيلة من العرب سكنوا فى هذه السكة فنسبت إليهم ، وسُمَى أديبنا (الحَرامىَّ) نسبة إلى هذه السكة ، وكان الحريرى يزعم أنه من ربيعة الفرس ، أما كلمة « الحريرى » فنسبة إلى عمله، أى أنه يصنع الحرير أو يبيعه .

وأقبل أبو محمد القاسم الحريرى على العلم والأدب ، وأكبَّ على

الدراسات الدينية والعلوم اللغوية والنحو ، وقرأ الأدَب على أبى القاسم الفضل بن محمد القصبانى ، وتزوج الحريرى وأنجب ثلاثة أولاد ، وهم : عُبيد الله ، وأبو القاسم عبدالله ، وأبو العباس محمد أمَّا أولهم فكان قاضى البصرة ، وأمَّا الثانى فكان موظفًا فى ديوان بغداد ، وأمَّا الثالث فورث وظيفة أبيه ، وهى وظيفة « صاحب الخبر فى البصرة » وهى وظيفة تشبه وظيفة « مصلحة الاستعلامات » فى عصرنا .

ويقول عنه الدكتور شوقى ضيف : وكان فيه ذكاء ولسن وفصاحة وبلاغة فجذب إليه الأنظار ، وطمحت نفسه إلى وظائف الدولة ، وليس عندنا أخبار كثيرة تفسر لنا تقلّبه فى هذه الوظائف .

ويبدو أن الحريرى قضى معظم حياته فى البصرة ، وكان يتولى منصب صاحب الخبر فيها كما أسلفنا ، ويبدو من الروايات أيضًا أنه كان يتردد على بغداد فى ضيافة الخليفة المستظهر ، وفى ضيافة الوزراء الذين أعجبوا به ، ونال عندهم حظوة كبيرة .

ويبدو أن الحريرى كان متمسكا بدينه ، وكان لا يشرب الخمر ، ويؤيد ذلك ما أورده ياقوت الحموى إذ يقول : قال أبو الفضل جابر بن زهير : كنت عند أبى محمد القاسم بن على الحريرى بالمشَانِ أقرأ عليه المقامات ، فبلغه أن صاحبه أبا زيد المطهر بن سلام البصرى الذى عمل المقامات عنه قد شرب مسكرًا فكتب إليه أبياتًا ، فأقْسَمَ ألاَّ يعود إلى شرب مُسكرٍ .

وكان الحريرى مع علمه وفصاحته قذرًا فى نفسه وصورته ولبسته وهيأته ، وكان قصيراً ، دميماً ، بخيلاً ، وكان مُبتلًى بنتف لحيته ، ويحكى عنه صاحب « وفيات الأعيان » فيقول : جاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه

شيئًا ، فلما رآه استزرى شكله ، ففهم الحريرى ذلك منه ، فلما التمس منه أن يملى عليه ، قال له : اكتب :

مـا أنْتَ أوّلُ سـارٍ غَــرَّهُ قمـر ورائد أعجبتـه خضـرةُ الـدِّمَنِ

فاخْتَرْ لنفسِكَ غيرى إننى رجلٌ مثل المعيدىِّ فاسمعْ بى ولا تَرَنِى [(١)]

فخجل الرجل منه وانصرف .

وبدأ الحريرى كتابة مقاماته فى سنة ٤٩٥ ، وأتمها فى سنة ٥٠٤ كما يقول صاحب « معجم الأدباء » ، ولا نظن أنه استغرق تسع سنوات فى كتابة المقامات فى عمل متواصل ، وإنما كان يكتب بعض المقامات ثم ينصرف عنها لانشغاله بأعمال أخرى فى وظيفة صاحب الخبر ، أو فى ضيافة الخليفة المستظهر ، وفى ضيافة الوزراء الذين أعجبوا بأدبه .

وكتب الحريرى خمسين مقامة ، واتخذ له رواية وبطلا كما فعل بديع الزمان الهمذانى ، أمَّا الراوية فهو الحارث بن همام ، وأما البطل فهو أبو زيد السروجى . والحارث بن همام شخصية خيالية اخترعها الحريرى وأسند إليها رواية المقامات ، أمَّا البطل أبو زيد السروجى فقد اختلف مؤرخو الأدب فى حقيقته فرأى بعضهم أنه شخصية خيالية من اختراع الحريرى ، ورأى بعضهم أنه شخصيته واقعية ، ونسب بعضهم إلى الحريرى قوله : « أبو زيد السروجى نسبة إلى سروج ، كان شيخاً شحاذًا بليغًا ، ومكديًا [(٢)] فصيحا ، وَرَدَ علينا البصرة فوقف فى مسجد بنى حرام ، فسلّم ثم سأل الناس ، وذكر أسر الروم ولده » [(٣)] .

---

(١) خضرة الدمن تعنى حُسْن المظهر وسوء المخبر ، والشطر الأخير يشير إلى المَثَل تَسْمَعُ بالمعيدى خيرٌ مِنْ أنْ تراه .

(٢) الكدية : التسول عن طريق الأدب ..

(٣) انظر : المقامه للدكتور شوقى ضيف ص ٤٨ .

ومعنى هذا أن أبا زيد شخصية حقيقة رآها القاسم الحريرى ، وبعضهم يقول : إن اسمه المطهر بن سلار ، وسماه بعضهم : المطهر بن سلام ، وقالوا : إن كان بصريًّا نحويًّا صحب الحريرى وروى عنه الواسطى كتاب «ملحة الإعراب » . للحريرى .

وتذكر الروايات أن الحريرى صنع أول مقامة وسماها : المقامة الحرامية ، ثم ذهب إلى بغداد وعرضها على بعض الرؤساء فأعجبوا بها وشجعوه على أن يضم إليها غيرها ، فكتب أربعين مقامة ، وذهب إلى بغداد وعرضها عليهم، فحسده بعض الأدباء وأنكروا أنها من عمله ، وتحدوه أن يصنع مقامة مثلها فعجز عن ذلك ، وعاد إلى البصرة ، وأتمها خمسين مقامة ، وحينئذ اعترفوا بفضله وعرفوا أنها من صنعه .

وتكشف هذه الروايات عن أن الحريرى كان يقيم بالبصرة ، وأنه كان يتردد على بغداد ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى البصرة موطنه ومقر عمله .

وتنسب بعض الروايات إلى الحريرى قوله : « فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان ، فأشار مَنْ إشارتُه حُكم ، وطاعتُه غُنْم إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع » . ومعنى هذا أن بعض الرؤساء هم الذين دفعوه إلى إنشاء المقامات كما فعل بديع الزمان الهمذانى ، ونستطيع أن نوفق بين الروايتين بأن الحريرى أنشأ مقامته الأولى وعرضها على بعض الكبراء فأشاروا عليه بأن يضم إليها غيرها ، ففعل .

ونالت المقامات شهرة واسعة ، وتداولها الناس ، وأشاد بها الحكام والأدباء ، ويقال : إنه أعطى إجازة لسبعمائة طالب أن يرووا مقاماته عنه فى الناس ، ويقول ابن خلكان : « واشتملت المقامات على شىء كثير من

كلام العرب من لغاتها وأمثالها ورموز أسرارها ، ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته » .

وكان الحريرى معجبًا بمقاماته فخورًا بها ، وقد أظهر التواضع فى مقدمة المقامات حيث يقول : « فأشار من إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وإنْ لم يدرك الظالع شأو الضليع » . والظالع الذى يغمز فى مشيته ، والضليع القوى ، فهو بجانب بديع الزمان كالأعرج ، ولكنه فى المقامة السابعة والأربعين يكشف عن اعتقاده بتفوقه على بديع الزمان ، حيث يقول على لسان أبى زيد بطل مقاماته :

إنْ يكُن الإسكندرىُّ قبلـى　　　فالطَّلُّ قد يبدو أَمـامَ الْوَبْـل

والفضل للوابل لا للطـلّ

والإسكندرىُّ بطل مقامات بديع الزمان ، وأبو زيد بطل مقامات الحريرى ، فهو يرى أن مقامات بديع الزمان كالطلِّ الذى يسبق المطر ، وأن مقامات الحريرى كالمطر الغزير ، فمقاماته أعظم وإن سبقتها مقامات البديع .

وللحريرى مؤلفات منها : دُرَّةَ الغوّاص فى أوهام الخواص ، ومنها ملحة الإعراب ، وله أيضاً شرح الملحة ، وله ديوان شعر ، أما أشهر أعماله فهى المقامات ، وسنبدأ بالحديث عنها :



مقامات الحريرى

الرائد الثانى لفن المقَامَـة

يُعَدُّ الحريرى الرائد الثانى لفن المقامة ، فقد ولد الحريرى بعد وفاة بديع الزمان بثمانٍ وأربعين سنة ، أى أنه كان قريب عهد ببديع الزمان ، وكانت مظاهر الحياة فى القرن الخامس الهجرى لم تتغير كثيرًا عَمَّا كانت عليه فى القرن الرابع ، وكان الذوق الأدبى فى عهد الحريرى كبير الشبه بما كان عليه فى عهد البديع .

وقد بدأ الحريرى كتابة مقامة سنة ٤٩٥ هـ ، وانتهى من كتابتها سنة ٥٠٤ أى إنه كتبها فى خلال تسع سنوات ، ولا نظن أنه كان متفرغاً لكتابة المقامات طيلة هذه المدة ، وكان الحريرى يشغل منصب صاحب الخبر فى ديوان البصرة ، وكانت له مشاغله المالية ، وقد قيل : إنه كان من ذوى الثراء، كما كانت له مشاغله العلمية التأليفية ، فالمعقول أنه كان يكتب مقاماته فى فترات متقطعة ، وأنها اكتملت خمسين مقامة فى مدة تسع سنوات .

وكان الذوق الأدبى مازال على عهده فى أيام بديع الزمان ، فالأديب الفذ من يحيد عن طريق الترسل والانطلاق على السجية ، والأديب الفذ من يلغز ويبهم يستحوذ ويأتى بالصعب والجديد الذى لا يستطيعه إلا القليل ، والأدب الذى يستحوذ على الإعجاب ما التزم السجع وتكلف المحسنات ،

وهكذا اجتهد الحريرى أن تأتى مقاماته محققة ما يعجب عصره ، مشتملة على الأفانين والألغاز التى تعجز أقرانه ومنافسيه .

وكان الحريرى صاحب موهبة فَذَّة ، وقُدرة فائقة ، وعلم غزير وحافظة قوية ، فتملك إعجاب أبناء عصره وإعجاب القرون التى خلفت من بعدهم ، وكان الحريرى أشهر من أنشأ المقامات بعد بديع الزمان .

العوامل المؤثرة فى الحريرى :

صنع الحريرى مقاماته وهو يضع نصب عينيه مقامات بديع الزمان الهمذانى ولم ينكر الحريرى تأثره ببديع الزمان ، وبذلك نستطيع أن نقول : إن العوامل التى أثرت فى الحريرى تنحصر فى :

١ ـ بديع الزمان الهمذانى .

٢ ـ مظاهر عصره الذى عاش فيه .

أما عن تأثره ببديع الزمان ، فقد ذكر الحريرى أن بعض الرؤساء أشاروا عليه بأن ينشىء مقامات يحذو فيها حذو البديع ، ثم إن مظاهر التأثر ببديع الزمان واضحة فى مواقف كثيرة ، فقد اتخذو راوية وبطلا ، وكان يبدأ كل مقامة بالعبارة المحفوظة عن بديع الزمان : « حدثنا فلان قال » ، وإن كان من الطبيعى أن يُغَيِّر اسم الراوية واسم البطل ، ثم إن عدد المقامات هنا يُماثل ما حفظ لنا من مقامات بديع الزمان ، وكثير من المظاهر الفنية عند الأديبين الكبيرين متماثلة أو متشابهة .

أما عن مظاهر العصر الذى عاش فيه الحريرى فقد كانت كبيرة الشبه بما كانت عليه فى عهد بديع الزمان من الناحية الفنية ومن الناحية الاجتماعية ، فمذهب الصنعة هو السائد ، والسجع والمحسنات البديعية يطبعان

أساليب الأداء ، والإغراب والإلغاز والألاعيب الفنية مقياس أساسى للتفوق، وإظهار المقدرة الفنية هدف للكتاب ، وسنرى أمثلة عديدة لذلك.

وكانت المظاهر الاجتماعية شبيهة بما كانت عليه أيام بديع الزمان، فالمحتالون والمكدون بالأدب بارزون فى المجتمع ، وكان اصطلاح الساسانيين مازال يتردد على الألسنة ، وسنراه يتردد فى مقامات الحريرى، وفى الساسانيين يقول الدكتور أحمد أمين : « ساسانُ رويت فيه أقوال وأساطير ، فمن قائل : إنه ساسان بن سفنديار ، وكان من حديثه أنه لما حضرت أباه الوفاة فوض أمر الحكم إلى ابنته ، فأنف ساسان من ذلك ، واشترى غنماً وجعل يرعاها ، ثم نسب إليه كل مَنْ تكدَّى . وقيل : كان ساسان ملكًا من ملوك العجم حاربه « دارا » ملك الفُرْس واستولى على مُلكه ، فصار فقيرًا يتردد فى الأحياء ويستعطى ، فَضُربَ به المثَل . وقيل : إنه كان رجلا فقيرًا بصيرًا فى استعطاء الناس والاحتيال ، فنُسبوا إليه . وكانت طائفة تتجول أفرادها فى البلاد يستجدون ويحتالون ، وكانت عند بعضهم قُدرة أدبية يحتالون بها على الناس » . وسنرى إعجاب الأمراء وعامة الشعب بالمقدرة الفنية لهؤلاء المكدين .

الظروف التى أنشأ فيها الحريرى مقاماته :

تختلف الروايات اختلافًا غير مؤثر خول الظروف التى دفعت الحريرى إلى إنشاء مقاماته ، ويتفق كتابا وفيات الأعيان ، ومعجم الأدباء فى أن الحريرى صنع مقامته الأولى متأثرًا بشيخ من المكدين رآه فى المسجد يسأل الناس ويزعم أن الروم أسَرُوا ابنه ، ونورِدُ هنا شيئًا مما أورده ابن خلكان :

« كان سبب وضعه لهذه المقامات ما حكاه ولده أبو القاسم عبد الله

قال : كان أبى جالسًا فى مسجد بنى حَرَام ، فدخل شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر ، رثّ الحال ، فصيح الكلام ، حسن العبارة ، فسألته الجماعة : من أين الشيخ ؟ فقال : من سروج ، فاستخبروه عن كنيته ، فقال : أبو زيد ، وألقى قصيدة فى الحاضرين يقول فيها :

أنا من ساكنى سَرو ... ج ذوى الدين والهُدَىِ
كنتُ ذا ثروة بها ... ومُطاعًا مُسَوَّدَا
مَربعى مَألفُ الضيو ... ف ومالٍى لهم سُدَى
ويرانى المؤمِّلو ... نَ ملاذًا ومَقْصِدَا
فقضَى اللهُ أن يُغَيِّـ ... ـرَ ما كان عَوَّدَا
بَوَّأَ الرُّومَ أرْضَنا ... بعد ضِغْن تَوَلَّدَا
فَتَطَوَّحْتُ فى البلا ... دِ طريدًا مُشَرَّدَا
أجْتَدِى الناسَ بعدما ... كُنْتُ مِنْ قبلُ مُجْتَدَى

فعمل أبى المقامة المعروفة « بالحرامية » ، وهى المقامة الثامنة والأربعون فى كتاب المقامات ، وعَزاها إلى أبى زيد المذكور » .

وتقول رواية أخرى : إن أحد الرؤساء اقترح عليه أن ينشىء مقامات يحذو فيها حذو بديع الزمان الهمذانى ، فاستجاب له ، وجاءت هذه الرواية فى مقدمة شرح مقامات الحريرى على لسان الحريرى نفسه إذ يقول :

فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب ذِكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان، وعلاَّمة هَمَذان ، وعزا إلى أبى الفتح الإسكندرى نشأتها ، وإلى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يُعرف ، ونكِرَة لا تتعرف ، فأشار مَنْ إشارته حُكْم ، وطاعته غُنْم إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع » .

ونستطيع أن نوفق بين هاتين الروايتين بأن تشجيع بعض الرؤساء له على إنشاء مقامات إنما جاء بعد أن عرض عليه الحريرى مقامته الأولى ، بمعنى أن الحريرى أنشأ « المقاومة الحرامية» ، وعرضها على بعض الرؤساء ، فأشار عليه أن ينشىء عـــددًا مـــن المقامـــات كما فعـــل بديع الزمان الهمذانى، فاستجاب الحريرى له . . وقد رجعت إلى « البداية والنهاية » فوجدته يقول : « أنو شروان بن خالد بن محمد القاشانى الوزير أبو نصر ولى للخليفة المسترشد ، وهو الذى ألزم أبا محمد الحريرى بتكميل المقامات » . فقوله : ألزمه بتكميل المقامات ، يقطع بأن هذا كان بَعْدَ إنشاء المقامة الأولى .

ويقول صاحب البداية والنهاية بعد حكاية الشيخ الذى حَلَّ بالمسجد : « فعمل الحريرى المقامة الحرامية ، واشتهرت فى الناس ، فلما طالعها الوزير أنوشروان أعجب بها ، وكَلَّف أبا محمد الحريرى أن يزيد عليها غيرها ، وكان الوزير أنوشروان كريماً ، وقد مدحه الحريرى ، وأورد شعرًا فى مدح أنوشروان . . . » .

وهكذا يتضح لنا أن الحريرى أنشأ المقامة الحرامية ، ثم شجعه بعض الرؤساء على أن يضم إلى هذه المقامة غيرها ففعل .

ويوضـح لنـا ياقـوت الحموى كيف عرض الحريرى مقامته الأولى على أنو شروان ؟ ، وأين كان ذلك ؟ حيث يقول : « إن الحريرى لما صنع المقامة الحرامية أصعد إلى بغداد ، فدخل يومًا إلى ديوان السلطان ، فقال له بعض الكُتَّاب : أى شىء تتعانى من صناعة الكتابة حتى نُبَاحثك فيه ؟ . فأخذ بيده قلماً وقال : كل ما يتعلق بهذا ، فسأله كل واحد عَمَّا يعتقد فى نفسه إتقانه من أنواع الكتابة ، فأجاب عن الجميع أحسن جواب حتى بهرهم، فانتهى خبره إلى الوزير أنوشروان بن خالد ، فأدخل عليه فتَحادَثَا

يومًا فى مجلسه ، حتى انتهى الحديث إلى ذكر أبى زيد السروجى المقدم ذِكْره ، وأورد ابن الحريرى المقامة الحرامية فأستحسنها أنوشروان جدًّا ، وقال : ينبغى أن يُضاف إلى هذه أمثالها ، فقال : أفعل ذلك مع رجوعى إلى البصرة وتجمع خاطرى بها ، ثم انحدر إلى البصرة فصنع أربعين مقامة ، ثم أصعد إلى بغداد وعرضها على أنوشروان فاستحسنها وتداولها الناس » . وتوضح هذه الرواية كيف قابل الحريرى أنوشروان ؟ وأن المقابلتين الأولى والثانية كانتا فى بغداد ، وأن المقامات الخمسين أنشأها الحريرى فى مدينة البصرة .

ويحكى صاحب معجم الأدباء كيف تمت كتابة المقامات العشرة الأخيرة فيقول بعد أن تحدث عن إنشاء المقامات الأربعين وذهابه إلى بغداد وعرضها على بعض الرؤساء : « واتهمه من يحسده بأنها ليست من عمله ، وقالوا : هذا من صناعة رجل كان استضاف به ومات عنده فادَّعَاها لنفسه. وقال آخرون : بل العربُ أخذتْ بعضَ القوافل ، وكان مِمَّا أُخِذَ جراب بعض المغاربة ، وباعه العرب بالبصرة ، فاشتراه ابن الحريرى وادعاه ، فإن كان صادقًا فى أنها من عمله فليصنع مقامة أخرى ، فقال : نعم ، وجلس فى منزله ببغداد أربعين يومًا فلم يُهَيَّأْ له تركيب كلمتين ، فعاد إلى البصرة ، فما غاب عنهم إلاَّ مُدَيْدة حتى عمل عشر مقامات وأضافها إلى تلك ، وأصعد بها إلى بغداد ، فحينئذ بان فضله وعلموا أنها من عمله » .

وعلى هذا نستطيع أن نقول : إن المقامات الخمسين كُتبت فى البصرة ، وإن الحريرى كان يذهب إلى بغداد لعرض هذا النتاج الفريد على الرؤساء فى عاصمة الخلافة .

واختلفت الروايات حول الشخصية التى شجعت الحريرى على إضافة

مقامات أخرى إلى المقامة الأولى التى كتبها ، وجاء فى مقدمة المقامات : «إن الـذى أشار عليه بأن يضم إلى المقامة الأولى غيرها الوزير شرف الدين أبو نصر أنوشروان بن خالد القاشانى وزير الإمام المسترشد بالله » .

وفى رواية أخرى بخط الحريرى : « صنعتها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبى الحسن على بن أبى المعز على بن صدقة وزير المسترشد ، وهذا أصح ، لأنه بخطه » .

وللدكتور شوقى ضيف رأى وجيه يخالف ما جاء فى مقدمة المقامات ، وهو يرى أن الذى شجع الحريرى على إضافة مقامات أخرى إنما هو الخليفة المستظهر ، وليس الوزير أنوشروان أو الوزير ابن صدقة » .

يقـول د . شوقى ضيف : « وتذهب طائفة إلى أن الذى عنى به أنوشروان بن خالد وزير المسترشد بالله ، وتزعم طائفة أخرى أن الذى عنى به وزير آخر لنفس الخليفة يسمى ابن صدقة ، غير أن من يرجع إلى تاريخ تأليف الحريرى لمقاماته يراها قد أتمها سنة ٥٠٤ هـ . ومعنى ذلك أن ما يُقال من صلة ابن صدقة وأنوشروان بتأليفها غير صحيح ، فأنوشروان إنما ولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريرى ، أما ابن صدقة فوليها وهو حى سنة ٥١٢هـ، ولكن بعد تأليفه لمقاماته بسنوات ثمان [1] .

من أجل ذلك كنا نذهب إلى ما رواه الشَّريشى فى تعليقه على العبارة السابقة ،إذْ رَوَى عن بعض أساتذته أن الذى أشار إليه الحريرى فى مقدمته هو الخليفة المستظهر (٤٨٧ هـ ــ ٥١٢ هـ) وكان له حظ من الأدب وعناية بأهل العلم ، فقصده الحريرى ، ومازال يبعثه على صنع المقامات

---

(١) المقامة ـ سلسلة فنون الأدب العربى ، ص ٤٤ ، ٤٥ ، طـ دار المعارف .

حتى أتمها ورفعها إليه ، فبلغ عنده أسنى المراتب ، وخلفه المسترشد فاتصل الحريرى بكبار رجال الدولة لعهده ، ومن هنا تأتى صلته بابن صدقة وزيـره، وربما اتصـل بأنوشروان كما اتصل بغيره من البارزين وقدَّمَ لهم نسخًا[1] .

ورأى د . شوقى ضيف رأى وجيه ، ولكن كثيرين من المؤرخين الأدباء يخالفونه ، ومما جاء فى البداية والنهاية : « أنوشروان بن خالد القاشانى الوزير أبو نصر ولى للخليفة المسترشد ، وهو الذى ألزم أبا محمد الحريرى بتكميل المقامات ، وكان الوزير أنوشروان كريماً ، ومدحه الحريرى .

وإذا صح ما جاء فى البداية والنهاية فإننا نجوز أن يكون القاشانى أو ابن صدقة أو كلاهما قد شجع الحريرى على كتابة مقامات أخرى قبل أن يليا الوزارة ، وأن النص الوارد فى ذلك كُتب بعد توليهما الوزارة ، وأسند لقب الوزير إليهما حيث كانا قد شغلا هذا المنصب حين ذاك .

عدد المقامات:

لا خلاف فى أن الحريرى كتب خمسين مقامة ، وتذكر المصادر الأدبية أن الحريرى كتب المقامة الحرامية وعرضها على بعض الرؤساء فشجعه الوزير على أن يضيف إليها غيرها ، فأتم أربعين مقامة ثم عرضها فى بغداد فاتهمه حُسَّاده بأنها ليست من عمله ، وتحدّوه أن يعمل مقامة أخرى ، فعاد إلى البصرة وأضاف عشر مقامات أخرى ، فاكتملت خمسين مقامة .

ويبدو أنه قصد بهذا العدد أن يُضاهى مقامات بديع الزمان ، فقد حُفظ لنا من مقامات بديع الزمان خمسون مقامة ، غير أن بديع الزمان لم يراع

---

(١) المصدر السابق .

ترتيبًا بين مقاماته ، أما الحريرى فقد راعى نوعًا من الترتيب فى أولى مقاماته وفى آخرها ولم يضع مقامته « الحرامية » فى صدر مقاماته ، مع أنها أول مقامة أنشأها ، وإنما جعلها المقامة الثامنة والأربعين بين مقاماته والحقيقة أنه لا قيمة لوضعها فى هذا الموضع ، فنحن لا نلحظ ترتيبًا بين مقاماته من الثانية إلى الثامنة والأربعين ، وإنما نرى الترتيب وحُسن التخطيط فى صدر مقاماته وفى آخرها ، وقد بدأ بالمقامة الصنعائية ، لأنه يروى أن صنعاء أول بلدة صنعت بعد الطوفان ، وفى المقامة الأولى نرى الحارث بن همام (راوى المقامات) يخرج إلى صنعاء اليمن ويدخل ناديًا رحبًا ، فيرى شخصًا يعظ الناس ويملك إعجابهم ، ويحصل على هباتهم ، ثم ينصرف ، ويتبعه الحارث بن همام ، ويدخل الرجل مغارة فيتبعه الحارث فيراه مجالسًا تلميذًا له يحتسيان الخمر ، ويلومه الحارثَ بن همام لمخالفةِ ظاهرِهِ لباطنِهِ ، ويسأل تلميذه : مَنْ هذا الرجل ؟ . فيقول التلميذ : هذا أبو زيد السروجى ، سراجُ الغُرَباء ، وتاجُ الأدباء .

ونرى فى هذا السرد أن الحارث بن همام لم يكن يعرف أبا زيد السروجى ، وأن هذا أوّلُ تعرُّفٍ له به ، وهذا مناسب لبداية المقامات ، وفى المقامة الثانية يعرف الحارث بن همام أبا زيد حين يراه ، وهكذا نراه عارفًا به فى كل المقامات التالية .

وتتوالى المقامات حتى الثامنة والأربعين لا رابطة بينها ولا ترتيب ، ثم يحسن الحريرى خاتمة مقاماته ، حيث نرى أبا زيد السروجى فى المقامة التاسعة والأربعين (وهى المقامة الساسانية) نراه شيخًا ضعيفًا يُحضِر ابنه وينبهه إلى قرب ارتحال أبيه ، وأن ابنه ولي عهده ، ويغض من قيمة المعايش الأربعة : الإمارة ، والتجارة ، والزراعة ، والصناعة ، ويشيد بحرفة

ساسان، ويعنى بها الكدية ، ويرد الابن مؤيدًا أباه ويدعو له بطول البقاء ، ويعده بالاقتداء به . . وهذه المقامة مناسبة فى وضعها بين المقامات ، وهى تمهيد لنهاية أبى زيد السروجى .

ثم تأتى المقامة الخمسون ، وفيها يقصد الحارث بن همام مسجد البصرة فيرى فيه شخصًا ذا أطْمَارٍ بالية ، فيقصد تجاهه ، فإذا هو أبو زيد السروجى، ويشيد السروجى بأهل البصرة ، ويعلن الندم والتوبة ، وأنه لا يبغى أعطيتهم وإنما يبغى أدعيتهم ، وتدعو الجماعة له وتُقدم له الهبات ، وينصرف السروجى ويتبعه الحارث بن همام ، ويختليان ويؤكد السروجى الندم والتوبة ، ثم يودعه وينطلق ، ويتتبع الحارث أخباره ، ويخبره الركبان أن أبا زيد لبس الصوف وصار عابدًا وأظهر الكرامات ، ويرحل إليه الحارث ابن همام ويحضره وهو ينشد شعرًا روحيًّا ، ويصلى الحارث خلف أبى زيد ، ويطلب وصيته فيوصيه ، ويودعه وداع فراق .

وهكذا نرى خاتمة المقامات وخاتمة أبى زيد السروجى ، وهكذا أجاد الحريرى فى بداية المقامات ، ومهد للخاتمة ، ثم ختمها خاتمة مناسبة . . أمَّا بديع الزمان فلم يرسم لمقاماته بداية ولا خاتمة .

المقامة والقصة القصيرة

يرى بعض الأدباء أن القصة القصيرة نشأت متأثرة بفن المقامة ، وهذا حق وإن اختلفت ظروف المجتمع وتطور الذوق الأدبى ، فاختلفت الموضوعات التى تعالجها القصص القصيرة ، وتحرر الأسلوب من التزام السجع وتكلف المحسنات البديعة ، وقد ظل الأسلوب المسجوع حتى صدر القرن العشرين .

ولم يكن أبو القاسم الحريرى يهتم بالفن القصصى قدر اهتمامه بإظهار البراعة اللغوية ، وربع مقاماته نجد فيها عناصر القصة القصيرة .

ونتحدث هنا عن عناصر هذه المقامات ، فنتحدث عن الحَدَث ، والزمان ، والمكان ، والشخصيات ، والعقدة والحل .

الحَدَث :

تنبع الأحداث فى هذه المقامات من الظروف الشخصية للحريرى ، ومن ظروف البيئة الاجتماعية ، وقد كان الحريرى يعتقد تفوقه وتفوق أدبه ، وبنى بعض الأحداث فى المقامات على هذه النظرة ، ففى المقامة الفرضية يحكى أبو زيد للحارث أنه بات حليف إفلاس ، فغدا وقت الإشراق إلى بعض الأسواق فلحظ بها تمرا كالإبريز الأصفر ، واشتهاه ولكن لا سبيل إليه ، ثم لقى شيخًا يتأوَّه ، فسأله الحريرى عن حاله ، فأجابه بأن مسألة تشغله لا

يجد لها حلاً ، وسمع الحريرى مضمون المسألة وحَلّ لغزها ، فآواه الرجل وأكرمه . . وهنا نرى ذكاء أبى زيد ، وأثر ذلك فى تحقيق آماله .

وتعكس بعض المقامات أحداثًا اجتماعية ، وأهمها الكدية ، وقد بُنى كثير من مقامات الحريرى على الكدية وتحايل المكدين ، وكثيرًا ما كان المكدون يتوسلون بالأدب ، وينجح أبو زيد فى كل موقف بفضل احتياله وبفضل ما يُبْديه من فنون أدبية بديعة .

وتصور المقامة الزبيدية بعض المظاهر الاجتماعية ، وفيها لون من التحايل غير مطروق ، وتتطور فيها الأحداث تطورًا يتفق والتقاليد الاجتماعية والدينية، وفيها يحكى الحارث بن همام أنه قصد إلى السوق ليبتاع عبدًا ، وإذا برجل قد قبض على زند غلام وهو ينشدٍ شعرًا يشيد فيه بالفتى ، واشترى الحارث الغلام ، وأنشد الفتى أبياتًا أعلن فيها أنه يوسف ، وانصرف البائع ، وأنشد الفتى أبياتاً أخرى أعلن فيها أنه حر وليس بعبد ، وتشَاجَرا ، وذهبَا إلى القاضى ، وأعلن الفتى أنه أخبر الرجل بحقيقة أمره حين قال له : أنا يوسف أى حُرٌّ كيوسف عليه السلام ، وإنْ بِيعَ فى سُوق العبيد ، وأخيرًا حكم القاضى بحرية الغلام وبطلان البيع .

وهو حكم عادل فالحر لا يُسْتَرَقُّ . . وتعكس المقامة أحداثًا ومظاهِرَ اجتماعية ، منها أسواق العبيد ، والمناداة عليهم ، وتصور التَّقَاضى والمنازعات والاستدلال ، والحكم بالقانون السماوى .

وفى أحيان قليلة يربط الحريرى بين أحداث يبدو عليها التكلف ، وجاء ذلك فى المقامة البكرية ، نسبة إلى الفتاة البكر ، وتسير الأحداث فى أول المقامة سيرًا طبيعيًّا لا يخلو من المفاجئات الطريفة ، وفيها يقابل الحارث بن همام أبا زيد راكبًا ناقة قوية يعجب بها الحارث ، ويسأل عن مصدرها ،

ويعلن أبو زيد أنه اشتراها من حضر موت ثم نَدَّتْ منه ، فحزن لفراقها ، وظل يبحث عنها ، ورأى رجلاً يُعلن عن ضالة ظَنَّ أنها ناقته ، وطلبها فرفض الرجل ، وذهبا إلى الحاكم ، وهنا تحدث المفاجأة غير المتوقعة ، إذ أعلن الحاكم أن الضالة نَعْلٌ ، وهو يركب نعله كما يركب الناقة ، وأعلن الرجل إلى أبى زيد أن ناقته عنده ، وسلمها إليه ، وإلى هنا والأحداث تسير سيرًا طبيعيًّا مترابطًا ، ولكنَّ الحريرى يلصق بها حكاية أخرى مضمونها أن الحارث أراد الزواج ، واستشار أبا زيد : هل يتزوج بكرًا أوثيِّبًا ؟ . ويصف أبو زيد كلتيهما مادحا ثم ذامًّا ، وهذا الجزء من القصة لا ينسجم انسجامًا طبيعيًّا مع الجزء الأول .

مسرح الأحداث وزمانها :

فى معظم مقامات الحريرى يحدد الحريرى البلدة التى تجرى فيها أحداث المقامة ، ويتضح ذلك من أسماء المقامات ، فمعظمها يُسمى بأسماء البلاد، وقليل من المقامات تجرى أحداثها فى بلدة غير البلدة التى تنسب إليها المقامة ، ففى المقامة الصورية يتحدث عن رحيله من بغداد إلى صور ، ثم اشتياقه إلى مصر ورحيله إليها ، وفى مصر تجرى أحداث المقامة ، وفى المقامة الرملية يرحل من الرملة إلى الشام قاصدًا الحج ، ويصل الجحفة «ميقات أهل الشام » ، وفى الطريق تجرى أحداث المقامة الرملية .

ويحدد الحريرى مسرح الأحداث فى البلدة ، ولا يهتم بوصف هذا المسرح، وإنما يركز كل اهتمامه فى الحديث عن أبى زيد ، والكشف عن فنونه الأدبية ، وحيله الماكرة ، وقد يصف مسرح الأحداث وصفًا موجزًا لا يعطينا صورة واضحة عنه ، ففى المقامة الدمشقية يتوجه الحارث بن همام إلى غوطة دمشق ، وهى ما هى فى جمالها وشهرتها ، ولكنه يصفها بقوله :

«ألفيتُها كما تصفها الألسن ، وفيها ما تشتهى الأنفس وتَلَذُّ الأَعْيُن » هكذا فقط ، ويتضح لنا من هذا الموقف ومن غيره أن الحريرى غير مولع بوصف الطبيعة .

وأحياناً يسرد الحريرى الأحداث دون أن يحدد لنا مسرحها ، ففى المقامة القهقرية يقول : « لحظت فى بعض مطارح البين » ولا يحدد المكان ولا يهتم بوصفه . وفى المقامة الوبرية تجرى الأحداث فى بادية لا يحددها ولا نعرف موقعها . وفى كثير من المقامات تتحقق الوحدة المكانية ، أى أن الأحداث تجرى فى مكان واحد كما نرى فى المقامة الحلوانية والدينارية والدمياطية والمراغية ، وغيرها كثير .

وقد تتعدد الأماكن التى تجرى فيها الأحداث ، وفى المقامة الأولى ـ وهى المقامة الصنعانية ـ يدخل الحارث بن همام ناديًا رحيبًا يرى فيه أبا زيد ، ونرى الأحداث الأدبية فى هذا النادى ، ثم ينصرف أبو زيد السروجى إلى مغارة ويتبعه الحارث فيجده مع تلميذ له يحتسيان النبيذ ، ويجرى حوار بينهما فى هذه المغارة ، ويلقى أبو زيد بعض أشعاره .

وفى المقامة الدمشقية تجرى الأحداث فى غوطة دمشق ، ثم فى إحدى الحانات ، وفى المقامة العمانية ، يتجه إلى « صحار » ويركب سفينة ، وتشتد الأمواج ، وينزل الحارث وأبو زيد إلى جزيرة ، ويقصدان قصرًا فخمًا ، ويدلى السروجى بدلوه ، ثم يعود الحارث إلى السفينة . . وهكذا تجرى أحداث المقامة فى أكثر من مكان .

أما الأماكن التى اتخذها الحريرى مسرحًا لمقاماته فهى شاملة لعديد من الأماكن ، فقد تجرى الأحداث فى أحد النوادى أو إحدى الحانات ، أو فى خان ، أو فى أرض ناضرة ، أو فى مغارة مقفرة ، أو فى خيمة ، أو فى

الصحراء ، أو فى ديوان النظر عند الحاكم ، أو فى مجلس القاضى ، أو فى أحد المساجد ، أو البيوت ، أو الأسواق ، أو فى الشارع ، أو عند قبر ، وقد يركب سفينة .

ولا نستطيع حين نقرأ مقامات الحريرى أن نعرف العصر الذى جرت فيه أحداث المقامة ، فهو يسرد أحداثًا لا تخص عصرًا ولا تكشف عن شخصية بارزة فى المقامة نستطيع أن نعرف عن طريقها العصر الذى عاشت فيه ، وقد رأينا عند بديع الزمان أنه يتحدث فى إحدى مقاماته عن الفرزدق وذى الرُّمه ومرة يصف فرسا لسيف الدولة الحمدانى وتحدث فى عديد من المقامات عن خلف بن أحمد ، أحد الأمراء فى القرن الرابع فى المشرق ، وكان معاصرًا لبديع الزمان ، وزاره البديع ونال جوائزه .

أما الحريرى فلا يكشف عن شىء من ذلك ، وقد يُورد بعض الأسماء ـ ولكن فى مجال التشبيه لا فى إطار الأحداث ـ ففى المقامة البرقعيدية يقول الحارث : « فإذا ألمِعيَّتى ألمعية ابن عباس ، وفراستى فراسة إياس » وابن عباس هو ابن عم النبى عليه السلام ، وابن إياس من أشهر القضاة فى العصر الأموى ،وفى المقامة العمانية يصف اجتماع الناس على أبى زيد فيقول : « حتى خُيِّلَ إليه أنه القَّرنِى أوَيس ، أو الأسدى دبيس » ، وأوَيْسٌ من كبار التابعين بالكوفة ، ودبيس أحد أمراء بغداد ، وكان معاصرًا للحريرى . . وكل هذه الأسماء إنما ترد على هامش الأحداث ولا تكشف عن العصر الذى جرت فيه . .

وتجرى أحداث المقامتين المكية والرملية فى موسم الحج ، والمقامة الطيبية بعد موسم الحج ، وتجرى أحداث المقامة البرقعيدية يوم العيد ، ولكنها لا تحدد عصرًا معينًا .

وتجرى أحداث المقامة فى زمان محدد يتناسب والقصة القصيرة ، وقد

تتوالى أحداث عديدة ولكن الكاتب لا يدع الأحداث تفلت من يده وتتفرع إلى أحداث جانبية ، وإنما يلتقط المواقف المؤثرة المترابطة .

وقد يشير الحريرى إلى أحداث طويلة ماضية ، ولكن هذا الماضى يبدو جزءاً منفصلا عن القصة ، وتتوالى أحداث القصة سريعة مترابطة فى زمن لا يطول ، ونرى ذلك فى المقامة الوبرية حيث يحكى الحارث بن همام فى بداية المقامة أنه مال فى الزمن الغابر إلى مجاورة أهل الوبر ، وجاورهم إلى أن صار صاحب إبل وخيل وغنم ، وهذه حكاية لماضى ذهب ، ثم يحكى أن ناقة له ضلت فراح يبحث عنها ، فلقى أبا زيد السروجى ، ومالا إلى الراحة ، ونام الحارث ثم استيقظ ، فعرف أن أبا زيد أخذ فرس الحارث وهرب ، وعند افترار ثغر الضوء رأى رجلاً راكبًا ناقة ، فطلب منه أن يُرْدِفَهُ خَلفة ، فأَبَى ، ولما اقترب عرف أنها ناقته فأذراه عن سنامها ، وإذا بأبى زيد يظهر ويشهر الرمح فى وجه اللص ، فيضطره إلى الفرار ، ويرفض أبو زيد إعادة الفرس للحارث وهذه أحداث متوالية لا تستغرق أكثر من يوم واحد .

غير أن الحريرى أطال فى مقامته الأخيرة « المقامة البصرية » بحيث تستغرق الأحداث أزمنة طويلة ، وكان يرمى إلى توكيد توبة أبى زيد السروجى ، وفى هذه المقامة يقصد الحارث بن همام جامع البصرة ، فيرى فيه أبا زيد فى أطمارِه البالية ، ويستمع إلى حديثه ، حيث يعظ ويتحدث عن ماضيه وعن توبته ، ثم يجتمعان ، ويؤكد السروجى أنه صادق فى توبته، ويودعه وينصرف ، ويظل الحارث بن همام يسأل الركبان عن أخبار أبى زيد، فيخبرونه أن قد تصوَّفَ ، فيرحل إلى سروج للقائه ، ويلقاه فى مُتَعبَّدِهِ، ويحادثه ، ثم يصحبه أبو زيد إلى بيته ، ثم يودعه الوداع الأخير ، وهذه أحداث طويلة تستغرق زمناً طويلاً .

الشخصيات :

تحفل مقامات الحريرى بشخصيات متنوعة مختلفة فى الأعمار والثقافات والأخلاق والتفكير والتصرفات ، وتتصرف هذه الشخصيات تصرفات متوقعة تبعًا لتفكيرها وأخلاقها ، وسنتحدث أولا عن أبى زيد السروجى والحارث بن همام ، وهما شخصيتان رئيستان ، ثم نتحدث عن الشخصيات الثانوية ، وهى كثيرة فى مقامات الحريرى .

الراوية والبطل :

أنشأ الحريرى مقاماته واتخذ لها بطلاً وراوية ، وسمى البطل أبا زيد السروجى وسمى الراوية الحارث بن همام ، ويبدأ الحريرى مقامته بقوله : «حكى الحارث بن همام قال ، أو حَدَّث ، أو رَوَى ، أو أخْبر » . ثم يورد المقامة على لسان هذا الراوية ، ونستثنى من ذلك مقامة واحدة ، هى المقامة الحرامية ، فقد رواها الحارث عن أبى زيد ، ووردت الأحداث على لسان أبى زيد نفسه ، ويؤدى أبو زيد دور البطل فى جميع المقامات .

واتفق مؤرخو الأدب على أن الراوية « الحارث بن همام » شخصية خيالية اخترعها الحريرى، واختار هذا الاسم متأثرًا بحديث نبوى شريف ، وفى ذلك يقول صاحب وفيات الأعيان : « وأمَّا تسمية راوى المقامات بالحارث ابن همام فإنما عنى به نفسه ، وهو مأخوذ من قوله ﷺ : « كلكم حارث وكلكم همام ، فالحارث الكاسب ، والهمام الكثير الاهتمام » .

والسروجى نسبة إلى سَرُوج ، ضاحية من ضواحى بغداد ، واختلف مؤرخو الأدب فى حقيقته ، هل هو شخصية حقيقية أو شخصية خيالية اخترعها الحريرى وأسند إليها بطولة مقاماته ؟ ويرى كثيرون أنه شخص

حقيقى وَرَدَ البصرة ، ودخل المساجد ، ورآه الحريرى ، ومما جاء فى معجم الأدباء : « قال الحريرى : أبو زيد السروجى كان شيخًا شحاذًا بليغًا ، ومُكديًا فصيحًا ، وَرَدَ علينا البصرة ، فوقف يوما فى مسجد بنى حرام فَسَلَّمَ ، ثم سألَ الناسَ ، وكان بعض الولاة حاضرًا ، والمسجدُ غاصٌّ بالفضلاء ، فأعجبتهم فصاحته وحسن صياغته كلامه وملاحته ، وذكَرَ أسْرَ الروم وَلَدَهُ ، وكان يُغَيِّرُ فى كل مسجد زيَّهُ وشكله ، ويظهر فى فنون الحيلة فضله ، فتعجبوا من جريانه فى ميدانه ، وتصرفه فى تلونه و إحسانه ، فأنشأت المقامة الحرامية ، ثم بنيت عليها سائر المقامات » .

ومعنى هذا أن أبا زيد شخصية حقيقية رآها الحريرى ، وكان يتردد على المساجد ، وذكر القاضى جمال الدين القفطى فى كتابه « إنباه الرواة على أنباء النجاة » أن أبا زيد المذكور اسمه « المطهر بن سلار » وكان بصريًّا نحويًّا لغويًّا ، صَحِبَ الحريرى ، وروى عنه القاضى أبو الفتح محمد بن أحمد الواسطى « ملحة الإعراب » للحريرى .

وأورد معجم الأدباء ما أورده القفطى ، ولكنه سماه « المطهر بن سلام البصرى » وينكر د . شوقى ضيف أن يكون المطهر هو أبا زيد السروجى نفسه ، كما ينكر أن يكون أبو زيد السروجى شخصًا حقيقيًّا ، وفى ذلك يقول : « وقد يكون المطهر شخصية حقيقية ، وأنه أحد تلامذة الحريرى كما تقول كتب النحاة ، أما أنه أبو زيد السروجى فهذا هو الوهم الذى وقعوا فيه ، وقد أخطئوا أيضًا حين ظنوا أن أبا زيد شخص حقيقى ، إذ ليس أبو زيد عنده إلاَّ كأبى الفتح عند البديع ، فهو مِنْ وَهمِه وعمل مخيلته ، ابتَدَعَهُ ابتداعًا ليُدير عليه مقاماته » [1] .

---

(١) المقامة (ص ٤٩) .

وهو رأى أقرب إلى المعقول وإلى مجريات الأمور ، فقد نسج الحريرى على منوال البديع ، وقد اخترع البديع راوية وبطلاً لا وجود لهما فى الواقع ، فاخترع الحريرى أيضًا راوية وبطلاً لا وجود لهما فى الواقع ، وإذا افترضنا أن الحريرى رأى شخصًا فى المسجد يدعى أبا زيد كما قيل ، فكل تأثيره أنه أوحى إليه بهذه الكنية .

ولا يقتصر دور الراوية على رواية الأحداث ، فنحن نراه فى بعض المقامات يؤدى أدوارًا مهمة ، وفى المقامة الوبرية يشارك الحارث أبا زيد ويُقاسمه البطولة ، فهو يبحث عن الناقة ويقابل أبا زيد ويسرق أبو زيد فَرَسَهُ ، ثم يقابل الحارث اللص سارق الناقة ويذريه عن سنامها ، ويعاونه أبو زيد فى استرداد الناقة .

وفى المقامة الزبيدية يشترك الحارث وأبو زيد وابنه فى البطولة ، حيث يبيع أبو زيد ابنه على أنه عبد ، ويشتريه الحارث ، وتكتمل الأحداث عند القاضى ، على أنه أحياناً يؤدى أدوارًا غير مؤثرة ، وفى المقامة المكفوفية يقتصر دوره عِلى استقبال أبى زيد وتقديم الطعام له ، وفى المقامة البرقعيدية يدعى أبو زيد العمى ، ويسأل الحارث أبا زيد عن سبب ادعائه العمى .

أمَّا دور البطل فيؤديه أبو زيد السروجى ، ومعظم أدواره تقوم على الكدية . ويظهر أبو زيد فى صور متعددة ويلجأ إلى طرق عديدة للتحايل ، ويعتمد أساساً على أدبه وأفانينه اللغوية لاكتساب العطف والإعجاب .

وفى المقامة الأولى نرى الحارث بن همام لا يعرف أبا زيد ، وإنما يراه فى أحد النوادى يعظ الناس فيعجب به ، ويتتبعه إلى إحدى المغارات فيجده مع تلميذ له ، ويسأل الحارث تلميذ أبى زيد قائلا : « لتخبرنى مَنْ ذا ؟ » ، ويجيب التلميذ : « هذا أبو زيد السروجى » ، وهكذا يتعرف الراوية على البطل .

وفى سائر المقامات نرى الحارث بن همام عارفًا أبا زيد ، وفى بعض المقامات يعرفه حين يراه قبل أن يؤدى أبو زيد دوره ، وفى المقامة السنجارية يقول : « قفلت ذات مرة من الشام أنحو مدينة السلام ومعنا أبو زيد السروجى ، وفى كثير من المقامات يرى الحارث شخصًا لا يعرفه ويكتشف فى النهاية أنه أبو زيد السروجى ، . وفى المقامة النصيبية يقول الحارث فى أواخر المقامة : « ولَفَتُّ إليه بصرى ، فإذا هو شيخنا السروجى » .

ولا يظهر البطل فى جميع المقامات فى صورة واحدة ، ونراه يظهر فى صور متعددة ، وفى المقامة الكوفية يقول الحارث : « وقلنا للغلام : هيا هيا ، فهو هنا غلام ، وفى المقامة المراغية نراه كهلاً ، حيث يقول الحارث : « وكان بالمجلس كهل جالس فى الحاشية » . . وفى كثير من المقامات نراه شيخًا فانيًا ، كما نرى فى المقامة الفرضية حيث يقول : « فَدَخَلَ شَيْخٌ قَدْ حَنَى الدَّهْرُ صَعْدَتَهُ » ، وفى المقامة الشيرازية يقول : « إذ احْتَفَّ بنا ذو طِمْرَيْن ، قد كاد يناهز العُمْرَيْن » ، أى قرب أن يبلغ من العمر ثمانين سنة .

وفى بعض المقامات يتظاهر أبو زيد بالكبر أو بالعجز ، وهو فى الحقيقة على خلاف ذلك ، كما نرى فى المقامة البرقعيدية حيث يقول الحارث : «فطلع شيخ فى شملتين محجوب المقلتين » أى يغطى عينيه كأنه لا يرى ، وفى آخر المقامة يقول : « ثم فتح كريمتيه ورأرأ بتوأميته ، فإذا سِراجًا وجهه يَقدانِ كأنهما الْفَرقَدان [1]» .

وفى المقامة التفليسية يقول الحارث : « بَرزَ شخصٌ بَادِىَ اللَّقْوَة ، بَالِىَ الكِسْوَةَ » ، واللَّقْوَة : ضَرْبٌ من الفالج (الشلل) ، وفى آخر المقامة يقول :

---

(١) كريمتية عينية ـ رأرأ بتوأميته أى : حراره عينيه سراجا وجهه يقدان : عيناة تضيئان .

« فإذا هو شيخنا السَّروجيّ ، لا قَلَبَة بجسمه ، ولا شُبْهَة فى وَسْمِهِ » ، أى لا داء به ولا علّة .

ويظهر أبو زيد السروجى فى معظم المقامات فى ثياب رثة بالية ، ونادرًا ما يظهر حسن الهيئة ، وفى معظم المقامات يصفه وهو فى ثياب باليه أو ممزقة ، كما فى المقامة الدينارية ، إذْ يقول : « إذْ وقفَ بنا شَخْصٌ عليه سَمَل ، وفى مِشْيَته قَزَل » . والسَّمَل الثوب الخلق . وفى المقامة الكرجية يقول : «فإذا شيخ عارى الجلْدَةَ بَادِىَ الجُرْدَة » أى ظاهر البشرة من العرى .

ونادرًا ما نراه حسن البزة ، كما نراه فى المقامة الرقطاء إذ يقول الحارث : «فلما انتهيتُ إلى ظل الخيمة ، رأيتُ غِلْمَةً رُوقَة ، وشَارَة مَرْمُوقَة وشيخًا عليه بِزَّةٌ سَنِيَّة ، ولَدَيْهِ فاكهةٌ جَنِيَّة » (١) .

وكما يتظاهر أبو زيد بالعمى والشلل نراه يتنكر فى ثياب امرأة أو راهب حتى لا يهتدى إلى حقيقته أحد ، يقول الحارث فى المقامة البغدادية : «لمحنا عجوزًا تقبل من البُعْد ، وتحضر إحضار الجرد » أى تعدو عَدْوَ الخيل ، ثم يتضح أنه أبو زيد متنكرًا فى ثياب امرأة . ويقول الحارث فى المقامة الدمشقية : « شخص مَيْسَمُه ميسم الشبان ولبوسه لبوس الرهبان » .

ويجمع أبو زيد بين نوازع الخير والشر ، وبينما نراه فى بعض المقامات مخادعا محتالاً نراه فى مقامات أخرى يعظ الناس مخلصًا لله ، ويُقرى الضيوف لا يريد منهم جزاءً ولا شكورًا .

وفى المقامة البصرية ـ وهى آخر المقامات ـ يظهر أبو زيد وقد اعترف

---

(١) روقة أى : حِسَان ، جمع ريق بمعنى حسن ـ شارة هيئة حسنة ـ بِزَّة سنية ، خلعة حسنة .

بماضيه وأعلن التوبة وتصوَّف ولازم المسجد ، وقد أحسن الحريرى إذ ختم مقاماته بهذه الخاتمة فأوجد شيئًا من الربط بين مقاماته .

وأبرز صفات أبى زيد الذكاء . والمعرفة الواسعة ، والعلم الغزير ، والفصاحة، والدهاء، وسعة الخيال ، ودائمًا يجتذب الناس ويمتلك إعجابهم بأدبه وفصاحته ، حتى فى المواقف التى يلجأ فيها إلى ادعاء الخلاف بينه وبين ابنه أو زوجته أو ما إلى ذلك نراه يخلب الأسماع بحُسْن بيانه وفصاحته .

الشخصيات الثانوية :

فى مقامات الحريرى شخصيتان رئيستان هما أبو زيد السروجى والحارث ابن همام ، وإلى جانبهما نرى شخصيات ثانوية تختلف ثقافاتهم واتجاهاتهم ، وهى شخصيات مألوفة تؤدى أدوارًا نابعة من المجتمع ، إلاَّ أن هذه الشخصيات ـ إذا استثنينا ابنه وزوجته ـ لا نراها تؤدى أدوارًا بارزة ، وراوى المقامات يتحدث عنهم حديثًا عامًّا ولا يشركهم فى الأحداث أو الحوار مع البطل ، إلا أن يظهروا الإعجاب بفصاحة أبى زيد وحُسْن بيانه ، وقد يصفهم بأنهم فرسان البلاغة أو من خيرة الشعراء ، وفى المقامة المراغية يقول : «فأجْمَعَ مِنْ حَضَر من فرسان اليراعَة وأرباب البَرَاعَة » . وفى المقامة البغدادية يقول : « نَدَوْتُ بضَواحى الزَّوْرَاء [1] ، مَع مشيخة من الشعراء ، لا يَعْلَقُ لهم مُبَارٍ بِغُبَارٍ ، ولا يجرى معهم مُمَارٍ فى مضْمَارٍ » [2] وقد يصفهم مادحا لهم، كما فى قوله فى المقامة الصورية : « رأيت على جرد من الخيل عصبة كمصابيح الليل » .

وفى المقامة الصنعانية يظهر تلميذ لأبى زيد يجالسه فى المغارة ، ودوره

(١) ندوتُ : أقمتُ بالنادى ، والزوراء : اسم دجلة بغداد .

(٢) ممار : من المماراة ، وهى المجادلة . والمضمار : ميدان السباق .

ينحصر فى أن يسأله الحارث : لتخبرنى من ذا ؟ » ويجيب التلميذ : « هذا أبو زيد السروجى سراج الغرباء وتاج الأدباء » وفى المقامة الإسكندرية يرسل الحاكم أحد أعوانه ليتتبع أبا زيد ويعرف حقيقته ويخبره بما رأى .

وتغلب على هذه الشخصيات البساطة والسذاجة ، ويخدعون بحيل أبى زيد ، ونادرًا ما نرى شخصية ما كِرة كتلك التى رأيناها فى المقامة السنجارية إذْ وشى جار لأبى زيد بجاريته إلى االأمير ، وصور له جمالها وميزاتها وأرسل الأمير إلى أبى زيد يطلب الجارية لنفسه .

أمّا الزوجة والابن فيؤديان أدوارًا مهمة ، وقد ظهرت الزوجة فى أربع مقامات هى : البرقعيدية والاسكندرانية والتبريزية والرملية ، وفى المقامة البرقعيدية تظهر زوجته العجوز تقود زوجها الذى يدَّعِى العمى ، ويعطيها أحرازا لتقدمها إلى الناس ، وفى المقامة الإسكندرانية تذهب مع زوجها أبى زيد إلى الحاكم ، وتدعى أنها من أسرة ثرية ، وأن هذا الزوج أوهم أباها بأنه صاحب لآلىء ، واتضح بعد ذلك فقره ، ويجيب الرجل بأن لآلئه ألفاظه الأدبية وأنه لم يخدعها ، ويعطف القاضى عليهما ويعطيها بعض الدراهم ، وفى المقامتين التبريزية والرملية يلجأ أبو زيد وزوجته إلى القاضى ويتهم كل منهما الآخر .

أمَّا الابن فيظهر فى عشر مقامات ، وفى المقامة الحلبية يظهر أبو زيد ومعه عشرة أبناء ينشد كل منهم شعرًا ، وفى المقامتين الدمياطية والواسطية لا يقوم الابن بعمل مهم وإنما يكشف الأب لابنه عن سيرته فى الحياة وفى المقامة الواسطية يطلب من ابنه أن يحضر رغيفا ويذهب إلى السوق ويستبدل به زنادًا .

وفى المقامة المكية يشارك الابن فى أداء الدور ، حيث يشكو الأب وابنه

الفقر ، فى أسلوب أدبى بارع ، ويحوزان الإعجاب ، وينالان الهبات . . وفى المقامة الحجرية يظهر أبو زيد حجَّامًا ، ويظهر الابن مفلسًا يريد الحجامة، ويختلفان ، ويسأل الابن الناس فيعطونه حتى يرضى ، وفى المقامة الساسانية يحضر الأب ابنه ويوصيه بأن يَخْلُفَ أباه فى احتراف الكدية ، ويدعو الابن لأبيه ويعده بتنفيذ ما طلب .

أما فى المقامات الخمس الأخرى فيذهبان إلى القاضى ويُظهران الأفانين فى الاحتيال ، حتى يثيرا الشفقة وينالا الهبات ، ويتبارى الأب وابنه فى الاحتجاج لموقفهما ، ويظهران من الفصاحة ما يستحوذ على الإعجاب ، ونرى الأب مرة يدَّعى أمام القاضى أن هذا الفتى اغتصب مملوكة له ، ومرة يدعى أنه يسرق شعره ويدعيه لنفسه ، ومرة يدَّعى أن الفتى قتل ابنًا له ، ومرة يعترف بأن الفتى ابنه ، وأنه يعقه ، ويرد الفتى بأن أباه رباه على الأخلاق السَامية ، ولكنه منذ افتقر يحضه على سؤال الناس . . وفى المقامة الزبيدية يبيع أبو زيد ابنه للحارث بن همام على أنه عَبْدٌ ، ويقبض الثمن ، ثم يؤكد الابن أنه حر ، ويلجئان إلى القاضى ، ويحكم القاضى ببطلان البيع وحرية الغلام .

ونرى جميع الشخصيات من الرجال ، إذا استثنينا زوجة أبى زيد السروجى ، فهى تظهر فى أربع مقامات ، وتساعد زوجها فى أداء دوره . . وفى المقامة الواسطية يخطب أبو زيد السروجى فتاة ، ويقوم بإلقاء خطبة فريدة تخلو حروفها من الإعجام ، ولا تظهر الفتاة فى هذه المقامة . . وفى المقامة السنخارية لم تظهر جارية أبى زيد وإنما أشار إليها فى حديثه .

العقدة والحل :

فى كثير من مقامات الحريرى تبرز العقدة المثيرة للتطلع ومعرفة النهاية ،

وغالبًا ما يأتى الحل نابعًا من نفسية البطل ، وما عرف عنه من صفات وأخلاق .

وفى بعض المقامات حكاية تثير الانتباه وتبعث التطلع ، ولكن النهاية تأتى ساذجة لا تشبع التطلع ، وفى المقامة الصورية يخرج الحارث بن همام ويلقى فتية يصفهم بأنهم كمصابيح الليل ، ويسأل عن وجهتهم فيعرف أنهم متوجهون لحضور حفل عرس ، ويصحبهم إلى دار رفيعة البناء ، ويرون هناك شخصًا على قطيفة فوق دكة لطيفة ، ويبرز أبو زيد ليلقى خطبة الزواج ، وهنا أحداث مشوقة ، ويأتى الحريرى بأوصاف تزيد التطلع ، كوصفه الفتيان بأنهم كمصابيح الليل ، ووصف الدار بأنها رفيعة البناء ، والشخص الجالس على القطيفة ، ولكن الحكاية تنتهى بالخطبة التى يلقيها أبو زيد ثم ينصرف .

وقد تتعدد الأحداث وتتوالى فى ترابط وإثارة كما نرى فى المقامة الوبرية ، حيث يخرج الحارث بن همام إلى أهل الوبر ، ويعيش معهم ، وفى ليلة منيرة البدر تضل ناقته ، فيركب فرسه ويخرج للبحث عن ناقته ، فيقابل أبا زيد السروجى ، وينصحه أبو زيد بألاَّ يأسَى على ما فات ، ويفترشان التراب ويضطجعان ، وينام الحارث ، ويأخذ أبو زيد حصان الحارث ويهرب ، وهنا يجتمع على الحارث ضياع ناقته وضياع فرسه ، ويلمح الحارث شخصًا راكبًا ناقة ، ويشير إليه فلا يتوقف ، ويجيل بصره فيعرف أنها ناقته ، ويسقط الراكب من على ظهرها ، ويتشاجران ويحضرهما أبو زيد ويهدد سارق الناقة فيهرب ، وتعود الناقة إلى الحارث ، ويرفض أبو زيد أن يعيد الفرس إلى الحارث ، ويقول : ويْلٌ أهْوَنُ من وَيْلَيْن .

وهنا تتوالى المشكلات : تضيع ناقة الحارث ، ثم يُسْرَق فرسه ، ثم يلتقى باللص سارق الناقة ، ونادرًا ما تتعدد المشكلات فى مقامات الحريرى .

وغالبًا ما يأتى الحل نابعًا من نفيسة البطل وما عُرف عنه من صفات وأخلاق ، كما نرى فى المقام الواسطية ، حيث يعرض أبو زيد على الحارث أن يزوجه ، ويدعو القومة ويخطب فيهم ، ويولم لهم ، ثم يتخلص بحيلة لطيفة تتمشى مع ما عرف عن أبى زيد من الطمع والدهاء ، إذ يضع لهم «البنج» فى الطعام ، وينامون ، ويسرق ما فى بيوتهم وينصرف .

وتتعدد هذه الحلول التى تعتمد على ذكاء البطل وخداعه كما نرى فى المقامة الرحبية حيث يصحب أبـو زيد ابنه ويذهبان إلى الوالى ، ويدعى أبو زيد أن هذا الشاب قتل ابنه ، ويعجب الوالى بالفتى ويدفع جزءًا من الدية إلى أبى زيد ، ويقبل أبو زيد بشرط أن يحتفظ بالفتى حتى الصباح ليأخذ بقية الدية ، ثم يهربان فى الليل ، ويترك أبو زيد أبياتًا ساخرة موجهة إلى الوالى .

وقد يأتى الحل معتمد على سذاجة العوام ، وفى المقامة الحجرية يظهر أبو زيد حجامًا ، ويحضر شاب يريد الحجامة وليس معه مال ، ويتشاجران، وينشد الشاب شعرًا يعرب فيه عن فقره ، وينفعل الناس ويقدمون المال إلى الفتى ، ثم يتضح أنه ابن أبى زيد .

وقد يأتـى الحـل فجائيًا كما نرى فى المقامة البكرية ، حين ضلت ناقة لأبى زيد ، ولقى رجلا يعلن عن ضالة يصفها وصفًا ينطبق على الناقة ، فيطلبها أبو زيد ويرفض الرجل ، ويتشاجران ، ويذهبان إلى الحاكم ، ويتضح أن الرجل يعلن عن نعل وجدها ، ويرد الحاكم الناقة الضالة إلى أبى زيد ، وكانت موجودة فى حظيرته .

ويأتى الحل أحيانًا قدريًا لا يد لأبى زيد فيه ، كما نرى فى المقامة العمانية، حيث يركبون البحر ، وتشتد الرياح ، وينزلون إلى جزيرة يتجولون

فيها فيرون قصرًا يعرفون من حراسه أن زوجة صاحب القصر متعسرة فى الوضع ، ويدعى أبو زيد أنه يستطيع أن يكتب لها فيسهل عملية الوضع ، ويكتب أبو زيد للطفل يحثه على عدم الخروج إلى الدنيا ، ولكن الوضع يتم وينال أبو زيد المكافأة .

وفى المقامة الزبيدية اعتمد الحل على القانون الشرعى ، وكانت المشكلة أن أبا زيد باع ابنه على أنه عبد ، وبعد انصراف أبى زيد أعلن الغلام أنه حر، وذهبا إلى القاضى ، وحكم القاضى ببطلان البيع .

تعبير المقامات عن الحريرى :

تعبر المقامات - إلى حدٍّ ما - عن الحريرى ونظرته إلى الحياة وبعض مشكلاتها ، ولو أن أهتمام الحريرى باللغة وإظهار المقدرة طغى على سائر الاهتمامات ، ومع ذلك فإن المقامات تكشف فى بعض المواقف عن آراء الحريرى ونظرته إلى مشكلات الحياة .

وتكشف المقامات أول ما تكشف عن طموح الحريرى ورغبته فى الشهرة والمنصب والجاه ، وكانت مقامات البديع قد نالت من الشهرة والمكانة الأدبية ما جعل صيته يطبق الآفاق ، ورأى الحريرى أن الشعر والرسائل يشاركه فيهما كثير من الأدباء ، فعمد إلى كتابة المقامات ، ليحتل مكانة مشابهة للمكانة التى احتلها بديع الزمان .

وكان الحريرى عالمًا لغويًا ، وكان من أصحاب المعارف المتنوعة كما تكشف المقامات ، وكان يهفو إلى الظهور واحتلال مكانة رفيعة ، وقد عرض كثيرًا من هذه المعارف فى مقاماته ، وكشفت هذه المعارف وطريقة عرضها عن أنه كان يرغب فى ذيوع الصيت .

وكما كان أبو الفتح الإسكندرى يعبر عن بديع الزمان فإن أبا زيد السروجى يعبر عن الحريرى ، ونرى السروجى كثير الفخر بنفسه ، ولايدع الحريرى فرصة إلاَّ وأظهر تفوقه وفخره بنفسه ، وفى المقامة المراغية يطلب أحد الحاضرين من أبى زيد أن ينشىء رسالة يودعها شرح حاله ، حروف إحدى الكلمات يَعُمُّها النَّقْطُ ، وحروف الأخرى لم يُعْجمن [1] ، ويقول السائل : « وقد اسْتأنَيْتُ [2] بيانى حولاً فما أحَارُ قولاً ، ونبَّهْتُ فِكْرى سَنَةً فما ازداد إلا سنة [3] ، واستعنتُ بقاطبة الكُتَّابِ ، فكُلٌّ منهم قَطَّبَ وتَابَ» ، ويملى أبو زيد رسالة مطلعها : « الكرم ـ ثبت الله جيش سعودك ـ يزين ، واللؤم ـ غض الله جيش حسودك ـ يشين . . . الخ » .

وفى المقامة الطيبية أبيات على لسان أبى زيد يفخر فيها ويقول :

« أنا فى العالم مُثْلَه ولأَهْـــل العِـلْم قِبْـله »

ومعنى مُثْلَه ـ بضم الميم ـ أى مشهور وكان الحريرى يعتقد تفوقه على كبار الشعراء ، ومنهم البحترى . . وفى المقامة الحلوانية يقول أبو زيد لأحد الحاضرين : « ما الكتاب الذى تنظر فيه ؟ » . فيجيب : « ديوان أبى عبادة المشهود له بالإجادة » ويسأل أبو زيد : « هل عثرت له فيما لمحته على بديع استملحته ؟ » . فيقول : « نعم ، قوله :

كأنَّمَـــا تَبْسِـمُ عن لُؤْلُؤ مُنَضَّدٍ أوْ بَرَدٍ أوْ أقاح » .

ويقول أبو زيد : « يا للَعْجَبِ ، ولِضَيْعَة الأَدب ، أين أنت من البيت النَّدر ، الجامع مُشَبَّهَات الثغر ؟ وأنْشَدَ :

---

(1) أى : مهملة لا نقط بها .

(2) أى : انتظرتُ واستمهلتُ .

(3) السِّنَة : أول النوم .

نَفْسِى الفِدَاءُ لِثَغْرٍ رَاقَ مَبْسِمُهُ وزَانَـهُ شَنَبٌ نَاهِيكَ مِـنَ شَنَبِ

يَفْتَرُّ عن لَؤْلُؤٍ رَطْبٍ وعن بَـرَدٍ وعن أقاحٍ وعن طُلِعٍ وعن حَبَبِ (١)

فاستجاده من حضر واستحلاه ، واستعاده منه واستملاه » .

ولا عتقاد الحريرى بالتفوق كان يشعر بأنه مهضوم الحق ، وكان يشفق على الأدباء الذين لا يقدرهم الحكام والمجتمع حق قدرهم ، وكان يرثى لحالتهم الاجتماعية وحاجتهم إلى المال وبُخل ولاة الأمور عليهم ، ويصور ذلك ما جاء فى المقامة الإسكندرية حيث يقول :

« فالُيَوْمَ مَنْ يَعْلَقُ الرجاءُ به أَكسَدُ شَىْءٍ فى سُوقِه الأَدَبُ

لا عِرْضُ أبْنَائِهِ يُصَانُ ولا يُرْقَبُ فيهم إلٌّ ولا نَسَبُ » (٢) .

ويبدو أن الحريرى له فلسفة فى الحياة ترى أن الوطن ما وجَدَ فيه الإنسان العزة ، وصِينَتْ فيه كرامته ، وأن الرحيل عن الوطن واجب إذا أمتُهِنَت فيه كرامة الإنسان ، وجاء على لسان أبى زيد فى المقامة العمانية :

« لا تصبـونّ إلى وطن فيـه تضـام وتمتهـن

وارحل عن الدار التى تعلى الوهاد على القنن » (٣) .

وأجمعت الروايات على أن الحريرى كان بخيلاً ، زرىَّ الهيئة ، وكان محبًّا للمال ـ كما أوضحنا فى تعريفنا بالحريرى ـ ونرى أبا زيد السروجى يظهر فى معظم المقامات فى هيئة زرية ، ولذلك يدافع الحريرى ـ على لسان أبى زيد

---

(١) الشنب بريق الأسنان ـ الحَبب الفقاعات على وجه الكأس .

(٢) الإلّ : العهد والقرابة والمراد بالنسب هنا : الوصلة .

(٣) الوهاد الأرض المنخفضة ـ القنن أعالى الجبال .

عن سوء المنظر ، ويؤكد أن المهم المخبر . . وفى المقامة الشيرازية يقول : «فازداره القوم لطمرية ، ونسوا أن المرء بأصغريه » [1] ، وفى المقامة المروية ينشد أبو زيد السروجى أحد الولاة مغضبا :

« لا تَحْقِرَنَّ ـ أبَيْتَ اللَّعْنَ ـ ذَا أَدَبٍ   لَأَنْ بَدَا خَلَقَ السِّرْبَالِ سُبْرُوتَا » . [2]

وكان الحريرى ساخطًا على الظلم السياسى ، وعلى النفاق الاجتماعى ، ولكنه لم يكن يهاجم الحكام إلا بقدَر محدود ، ولم يكن له فلسفة فى الحكم يعتنقها ويعبر عنها ، وكل ما ورد فى المقامات سخط على الحاكم السيىء والأمير الظالم . . وفى المقامة الصنعانية يلقى اللوم على الدهر فيقول :

« وَلَوْ أنْصَفَ الدهْـر فى حُكْمِـه   لَما مَلَّكَ الحُكْمَ أَهْلَ النَّقِيصَة »

وفى المقامة الرازية ينشد أبو زيد معرضًا بالأمير الظالم ، ويعلن أن الحياة تحُول فيقول :

عَجَبًـا لِـرَاجٍ أنْ يَنَـالَ وِلايَـة   حتـى إذا مـا نَـالَ بُغْيَتَهُ بَغَـى
يُسْـدِى ويُلْحِـمُ فـى المظالم والِغًا   فـى وِرْدِهَـا طِـوْرًا وطَوْرًا مُولِغًـا
مـا إنْ يُبَـالى حين يَتَّبِـع الهَـوَى   فيهـا أَأَصْلَحَ دِينَـهُ أَمْ أوْبغَـا
يـا وَيْـحهُ لَـوْ كـانَ يُـوقِنُ أنَّـهُ   مـا حَالـةٌ إلاَّ تحُـول لَمَا طَغَى » [3]

وكذلك كان الحريرى ناقمًا على الكُتَّاب المنافقين المتلونين ، وفى ذلك يقول :

« والمنشىء أبو براقش » وأبو براقش طائر يتلون .

---

(١) ازدراه : احتقره ـ بأصغريه : بقلبه ولسانه .

(٢) سبروتًا : فقيرًا لا يملك شيىء .

(٣) يسدى ويلجم يجول ويصول ـ والغًا : شاربًا ـ مولغًا : ساقيا غيره ـ أولغا : أهلكا .

تمثيل المقامات لجوانب المجتمع

صورت مقامات الحريرى بعض جوانب المجتمع فى ذلك الوقت ، كما شملت نقدا لبعض الأوضاع الاجتماعية والثقافية ، فقد صورت بعض العادات الاجتماعية المتفشية بين عامة الناس ، ومنها الإيمان بالأحراز فى حل كثير من المشكلات ، وفى المقامة العمانية يصور موقفين تحايل فيهما السروجى عن طريق الأحراز ، فعند ما ركبوا فى السفينة أخبرهم أن معه عوذة مأخوذة عن الأنبياء ، وقال : « هى والله حرز السفر عند مسيرهم فى البحر ، والجُنَّة من الغم إذا جاشَ مَوْجُ اليَمِّ ، وبها استعصم نوح من الطوفان ، ونجا ومن معه من الحيوان» .

وعندما نزلوا الجزيرة ودخلوا قصرًا مشيدًا يملكه قطب هذه البقعة عرفوا أن زوجته متعسرة فى الوضع والناس يجهشون بالبكاء ، فقال أبو زيد : «عندى عزيمة الطلْق التى انتشر سمعها فى الخلق » وآمن الناس بفائدة الحرز .

وتعكس المقامات التحايل على الناس باسم الدين والتظاهر بغير ما يبطنون . . وفى المقامة الصنعانية يعظ أبو زيد الناس ، ثم يتوجه إلى مغارة يحتسى فيها النبيذ ، وفى المقامة الدمشقية يزعم أبو زيد أنه لُقِّنَ كلمات فى المنام تحترس بها من كيد الأنام ، ويطلب منهم أن يقرءوا الفاتحة ، ويلقنهم دعاء يزعم أنه يقوم مقام الخفير فى رحلتهم .

وكثير من المواعظ التى يلقيها أبو زيد السروجى إنما يهدف من ورائها إلى جمع المال ، وهنا يكثر الواعظ من الحث على الصدقة ويتحدث عن آثارها فى تكفير الذنوب ، ومن ذلك ما ورد فى المقامة الصنعانية ، حيث يقول : «تؤثر فَلْسًا توعيه على ذِكْر تعيه ، وتختار قصرًا تعليه على بِرٍّ توليه ، وترغب عن هادٍ تستهديه إلى زاد تستهديه ، وتغلب حب ثوب تشتهيه على ثواب تشتريه » .

وكانت الكدية معروفة ومنتشرة فى المجتمع ، وكان المكدون مقبولين لدى أفراد المجتمع ، يستمع إليهم الناس ، ويعجبون بما ينشدون ، ويبدو من مقامات الحريرى أن هؤلاء المكدين كانوا يجتمعون فى دور خاصة بهم ، ويتزاوَجُون من أنسال بعضهم . . وفى المقامة الصورية يقول : رأيت دهليزًا مجللا بأطمار مخرقة ، ومكلَّلاً بمخارف معلقة ، وهناك شخص على قطيفة فوق دكة لطيفة ، فعزمتُ عليه بِمُصَرِّفِ الأقدار ، ليعرفنى مَنْ رب هذه الدار ؟ فقال : ليس لها مالك معين ، ولا صاحب مبين ، وإنما هى مضطبة المقيفين والمدروزين ، ووليجة المشقشقين والمجلوزين »[1] .

وفى هذه المقامة يتولى أبو زيد عقد الزواج بين فتى وفتاة من أولاد المكدين، ويلقى خطبة طريفة يصف فيها العروسين ، ويسأل الله أن يكثر فى المصاطب نسل المكدين فى أسلوب فكه ، ومن قوله : « وهذا أبو الدرّاج ، ولاج بن خراج ، ذو الوجه الوقاح ، والإفك الصراح ، والهرير والصياح ، والإبرام والإلحاح ، يخطب سليطة أهلها ، وشريطة بعلها قنبس

(١) المقيفون : الشحاذون الذين يتتبعون آثار الناس ، وينبسون أنفسهم ثم يكدون . .
والمدروزون : الذين يتعرضون للصنائع الخسيسة ، مثل أعمال التعاويذ . (معرب)
والمشقشق : من يصعد فى دكة ويصعد الآخر فى دكة أخرى وينشد هذا بيتًا وذا بيتًا
والمجلوز : الذى يقرأ فضائل الصحابة .

بنت أبى العنبس ، لما بلغه من التحافها بإلحافها ، وإسرافها فى إسفافها وانكماشها على معاشها ، وانتعاشها عند هراشها » .

وكان هؤلاء المكدون يلبسون ملابس تُعرف بهم ، ويربطون الفوط ، ويترددون على المساجد وأماكن التجمع ، ويدعون دعاوى تجذب إليهم القلوب . . وفى المقامة الحرامية يدعى السروجى أن الروم أغاروا على بلدته وأسروا ابنته ، وأنه يريد العون ليفك ابنته من الأسْر . . وفى المقامة البرقعيدية يتظاهر بالعمى وتقوده زوجته ، وهؤلاء المكدون يتوسلون بالأدب ويأتون بما يجذب الأسماع .

ونرى الحريرى يشفق على الأدباء ويُكبرهم ويرثى لبؤسهم ، كما ذكرنا منذ قليل فى قوله فى المقامة الإسكندرية :

« فاليوم من يعلق الرجاء بـه　　أكسد شىء فى سوقه الأدب

لا عـرض أبنائــه يصانٍ ولا　　يــرقب فيهم إلّ ولا نسب »

ومع إشفاق الحريرى نراه ناقمًا على الكُتَّاب المنافقين المتلونين ، وكما ذكرنا أيضًا فى المقامة الفراتية يقول : « والمنشىء أبو براقش » وأبو براقش طائر يتلون .

ونريد أن نوضح هنا أن بعض المقامات لا يقوم على الكدية ، ونرى فيها أبا زيد يعظ وعظا خالصًا لوجه الله لا يبغى من ورائه جزاءً ولا شكورًا وفى المقامة الرملية يشد الحارث الرحال إلى البيت الحرام ، ويلتقى بأبى زيد السروجى ويخطب فيهم أبو زيد ناصحًا ومحذرًا ، ثم يعلن : « آليت فى حجتى هذه ألا أحتقب ، ولا أعتقب ، ولا أكتسب ، ولا أنتسب » . وفى المقامة النصيبية يمرض أبو زيد ويتوجه أصحابه لزيارته ، ويقدم لهم الطعام ويُحادثهم وينصرفون من عنده مسرورين .

ولا تخوض مقامات الحريرى فى المشكلات السياسية ، وكل ما هنا لك أنه أشار إلى ظلم الحكام وأظهر النقمة عليهم ، ومن ذلك قوله الذى مَرَّ بنا فى المقامة الرازية :

« عجبًا لراجٍ أن ينال ولاية   حتى إذا ما نال بُغْيَتَــة بغَى »

ثم راح يتحدث عن اتباعه هواه والاستهانة بتعاليم دينه ، وعن تقلب الزمان ودوران الأيام .

وتحدثت المقامات عن مظاهر اجتماعية أخرى ، ومنها الاهتمام بالأنساب ، ويبدو أن الفخر بالنسب لم يكن مقصورًا على العرب ، فقد كان بعض الفُرْس يفخرون بانتسابهم إلى ملوك الفرس . . وفى المقامة الحلوانية يقول الراوى : « ألفيت أبا زيد السروجى يتقلب فى قوالب الانتساب ، ويَخْبِطُ فى أساليب الاكتساب ، فيدَّعى تارةً أنه من آل ساسان ، ويعتزى مرة إلى أقيال غسان » وفى المقامة المراغية يقول أبو زيد :

« غَسَّان أُسْرَتى الصميمــة   وسَـرُوجُ تُـرْبَتـى القـديمــة

فالبيتُ مِثْلُ الشمس إشــــ   ـراقًا ومَنْزِلَـــةً جَسِيمَـــةْ

والـرَّبْـعُ كالفِرْدَوْس مَطْـــ   يَبَـــةً ومنْزَهَـــةً وَقيمــــهْ »

وتحدثت المقامات عن العبيد وأسواق بيعهم ، وعن استخدامهم ، وفى المقامة الزبيدية يقول : « فقصدت من يبيع العبيد بسوق زبيد ، فإنى لأَسْتَعْرِضُ الغِلْمَان وأستعْرِفُ الأثمانَ إذْ عارَضَنِى رَجُلٌ قد اختطمَ بلِثَام ، وقبض على زَنْد غلام ، وقال :

مَنْ يَشْتَرِى مِنِّى غُلامًا صَنَعـا   فى خَلْقِه وخُلْقِهِ قَدْ بَرَعَـا »[1]

---

(١) صَنَعًا ، أى : حَاذِقًا بالصناعة . وبَرَعَا : فَاقَ غَيْرَهُ .

ويدل هذا على أنهم كانوا ينادون على العبيد فى الأسواق ويؤلفون شعرا ونثرًا للترويج لبيعهم .

وتكشف المقامات عن وجود المكتبات فى مختلف البلاد ، وفى المقامة الحلوانية يقول الحارث بن همام : « وحضرت دار كتبها التى هى منتدى المتأدبين وملتقى القاطنين المتغربين » .

وتقلّ فى مقامات الحريرى أوصاف البيئة ، وفى المقامة السِّنّجارية وَصَفَ الحريرى الآنية وبعض الأطعمة ، وفى ذلك يقول : « ثم قَدَّمَ جَامًا [1] كأنّما جُمِّدَ مِنَ الهَوَاء ، أو جُمِعَ مِنَ الهَبَاء ، أو صِيغَ من نُور الفضاء ، أو قشِر من الدُّرَّةِ البيضاء ، وقد أُودِع لفائف النعيم ، وضُمِّخَ بالطِّيبِ العَمِيم ، وسِيقَ إليه شِرْبٌ مِنَ تَسْنِيم [2] ، وسَفَرَ عن مَرْأَى وَسِيم وأرَجِ نَسِيمَ » . وهو كما نرى وَصْفٌ يغلب عليه الافتنان ، ويكشف عن تأنق وترف .

---

(١) جامًا : آنية من زجَاج .

(٢) شِرْب : قِسْم وحظ ونصيب . وتسنيم : اسم عين فى الجنة .



المواعظ والوصايا

تحفل مقامات الحريرى بالمواعظ والوصايا ، ونرى عشرًا من هذه الوصايا تفيض بالوعظ والوصية ، وتتنوع بين الوعظ الخالص لله والوعظ من أجل الوصول إلى المال ، أو من أجل السخرية واللوم ، وبعض هذه الوصايا خاص بالموقف الذى وردت فيه وقد لا تتقبله النفوس ، ولكنه ينبع من ظروف خاصة .

وكثير من هذه المواعظ تحمل معانى دينية مطروقة ، كالتحذير من الانهماك فى متع الحياة ، والدعوة إلى تذكُّر الآخرة والعمل لها ، ومن ذلك ما ورد فى المقامة الصنعانية إذ يقول أبو زيد : « أيها السَّادِرُ فى غُلْوَائه ، السَّادِلُ ثَوْبَ خُيَلائه ، إلامَ تستمرُّ علَى غَيِّك ؟ وتَسْتَمْرِىءُ مَرْعَى بَغْيك ؟ وحَتَّامَ تَتَنَاهَى فى زهْوِكَ ؟ ولا تنتهى عن لَهْوِك ؟ » .

ويقتبس الحريرى فى مواعظه من القرآن الكريم ، ومن ذلك ما أورده فى المقامة الساوية بعد أن وبَّخهُم على الركون إلى الدنيا : « كلا ، ساء ما تتوهمون ، ثم كُلاَّ سوف تعلمون » .

وفى كثير من هذه الوصايا يظهر أن الهدف الأول منها إظهار المقدرة اللغوية والمهارة الفنية ، ويبدو ذلك واضحًا فى المقامة الرازية ، حيث ينشدهم أبياتًا تتعمد الجناس فى آخر الأبيات حيث يتفق كل بيتين فى الحروف الأخيرة بوجه من الوجوه كما فى قوله :

« وإنَّ قُصَارَى مَنْزِل الحَيِّ خُفْرَةٌ   سَيَنْزِلُهَا مُسْتَنْزَ لا عَنْ قِبَابِهِ

فَوَاهـا لِعَبْدٍ سَاءَه سُوءُ فِعْلِه   وأَبْدَى التَّلاقَى قَبْلَ إغْلَاقِ بَابِهِ »

فآخر البيت الأول (قبابه) وكذلك آخر البيت الثانى إذا ضممنا القاف إلى (بابه) .

وفى مقامات الحريرى وصايا عديدة ، ينصَحُ فيها « أبو زيد » ثم يأتى بخلاف ما ينصح به ، وفى المقامة التنيسية يوصى الناس بالإخلاص وتجنب المعاصى ، ثم يدعو صاحبه الحارث بن همام إلى بيته لشرب كأس الكُمَيْت ، وفى ذلك يقول الحارث : « ثم قال : هل لك فى ابتدار البيت لنتنازع كأسى الكميت ؟ » .

وهناك وصايا صدرت فى مواقف خاصة تدعو إلى مبادىء لا يقرها المجتمع ولا تتقبلها النفوس ، وقد لا يفهم مغزاها إلاَّ من أحاطَ بالظروف التى وردت فيها هذه الوصايا ، وهذه المبادىء التى تضمنتها هذه الوصايا لا يقصد الحريرى إلى بثها بين الناس ، وإنما هى فن يلائم الموقف الذى يحكيه ، وتكشف هذه الوصايا عن أخلاق الشخص الذى يقوم بهذا الدور ، وقد تتضمن توبيخًا لشخص متخلق بأخلاق شاذَّة ، وفى المقامة المغربية ينشد أبو زيد مَنْ تتبعه ليكشف حقيقته ، ويوصيه بالحرص والأخذ وعدم الإعطاء ، ومن قوله فى ذلك :

إذا مَا حَوَيْتَ جَنَى نَخْلَةٍ   فَلاَ تَقْرَبَنْهَا إلَى قَابِلِ (١)

وإمَّا سَقَطْتَ عَلَى بَيْدَرٍ   فَحوصِلْ مِنَ السُّنْبُل الحَاصِلِ (٢)

وخَاطِبْ بِهَاتِ وجَاوِبْ بِسَوْف   وبعْ آجِلاً مِنْكَ بالعَاجِلِ » (٣)

---

(١) حَوَيْتَ : حُزْتَ . جَنَى نخلة : ثمارها . . إلى قَابِل : إلى السَّنة المقبلة .

(٢) البيدر : الموضع الذى تُدَاسُ فيه الحبوب (الجرن) . فَحَوْصِلْ ، أى : املأ حَوْصلتك ، أى بطنك .

(٣) وجاوِبْ بسوف ، ، أى : بوعدٍ ، ومعنى ذلك خُذْو تُعْطِ . والآجِل : البعيد المؤجل . والعاجل : القريب .

وتقوم الوصية الساسانية على وصية فريدة يوجهها أبو زيد إلى ابنه ، وقد كبر أبو زيد فأحضر ابنه يوصيه بأن يخلف أباه فى مهنته ويبين له فضل الكدية على ما سواها ، وقد بدأ الأب بمقدمة أعلن فيها أن رحيله عن الدنيا قد دَنَا ، وأن أمله فى ابنه أن يكون زعيماً للكتيبة الساسانية ، وفى ذلك يقول :

« يا بنى ، إنه قد دنا ارتحالى من الفناء ، واكتحالى بمرْوَد الفَنَاء [1] ، وأنت . بحمد الله ولى عهدى ، وكبش الكتيبة الساسانية [2] من بعدى » .

ويعظم من شأن وصيته ، ثم يتحدث عن قيمة المال وأن المرء بنشبه [3] لا بنسبه . ثم يبين له أن المعايش أربعة : إمارة وتجارة وزراعة وصناعة ، وقد جربها جميعًا ولم يرض عنها ، فالولايات كأضغاث أحلام سريعة الزوال ، والتجارات عرضة للمخاطرات ، والتَّصدى لِلإزْدِرَاع [4] منهكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكَاض [5] وأما الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات . ثم يطنب فى تعظيم الكدية ، ومن قولهِ :

« والمتجر الذى لا يَبُور ، والمنهل الذى لا يَغُور . . . وكان أهلُها أعَزَّ قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مَسُّ حَيْفٍ [6] ولا يقلقهم سَلُّ سيف . . أينما سَقَطُوا لقطُوا ، وحيثما انخرطوا خَرَطُوا » [7] .

---

(١) الفناء بالكسر ، رحبة المنزل ، ، والفتح : الموت .

(٢) كبش الكتيبة : رئيسها .

(٣) بنشَبه : بماله .

(٤) أى : للزرع .

(٥) أى : السفر .

(٦) أى : إصابة ظُلْم .

(٧) لقطوا : جمعوا الرزق . . وانخرطوا : دَخَلُوا . . وخرطوا : قشروا ، وأصابوا .



وضوعات الأدبية واللغوية

ن الموضوعات الأدبية واللغوية أهم ما تضمّه مقامات
الحريرى يهدف إلى إظهار البراعة والمقِدَرة اللغوية
لحريرى كان عالمًا قديرًا ، وأنه أتَى فى مقاماته بما ينتزع

ه الموضوعات الأدبية واللغوية فيما يلى :

على القدماء : يُظهر الحريرى أبا زيد السروجى فى جميع
ا يُظْهر أفانينه ، ونرى أبا زيد يفضل المحدثين على
ى القدماء أنهم يأتون بالمعانى المطروقة وأنهم لا يجارون
لاستعارات المستعذبة والرسائل الموشحة ـ والأساجيع
د يعبر هنا عن وجهة نظر الحريرى ، فالحريرى لا
ع الطبع ، ويؤيد المذهب الذى يهتم بالسجع
مور ، وقد جاء فى المقامة المراغية :

ـة النقد ، ومَوَابِذَة الحل والعقد ، ما أبْرَزَتْهُ طَوارفُ
ذَعُ على القارِح ، من العبارات المهذبة والاستعاراتِ
الموَشَّحة ، والأساجيع المستمْلحة ؟ . وهل للقدماء
تضَرَ ، غير المعانى المطروقَة الموارِد ، المعقُولَة الشَّوارِد ،
الموالد ، لا لِتَقَدُّم الصادر على الوارد ؟ وإنى

لَأعْرفُ الآن مَنْ إذا أنشأ وَشَّى ، وإذا عَبَّر حَبَّرَ ، وإن أسْهبَ أذْهَبَ ، وإذا أوْجَزَ أَعْجَز . . »[١] .

وفى المقامة الحلوانية ينقد أبو زيد البحترى ، ويدعى التفوق عليه فيقول لشخص يقرأ فى ديوان البحترى : « هل عثرت له فيما لمحته على بديع استملحته ؟ قال : نعم ، قوله :

كأنَّمــا تَبْسِــمُ عــن لُؤلــؤٍ مُنَضَّدٍ أوْ بَـرَدٍ أَوْ أقــاح

فقال له : يا للعجب ، ولضيعة الأدب ، لقد اسْتَسمَنْتَ يا هَذَا ، ذَا وَرَمٌ ، ونفختَ فى غير ضَرَم ، أين أنت من البيت النَّدْر ، الجامع مُشَبَّهات الثَّغر ؟ وأنشد :

نَفْسِى الفـداءُ لثغر رَاقَ مَبْسِمُـهُ وَزَانَهُ شَنَبٌ نَاهِيكَ مِنْ شَنَب

يَفْتَرُّ عن لؤلؤ رَطْبٍ وعن بَرَدٍ وعن أقاحٍ وعن طَلْعٍ وعن حَبَب »[٢]

والبيتان للحريرى . . ويسأله أحد الحاضرين أن ينسج على منوال قول الشاعر :

فأمْطَرَتْ لؤلؤًا من نرجسٍ وسَقَتْ وردًا وعَضَّتْ على العُنَّابِ بِالبَرَدِ[٣]

ولا يلبث أن ينشد :

سألْتُها حين زارَتْ نَضْوَ بُرْقعِها القَانِي وإيداعَ سَمْعِى أطْيَبَ الخبر

(١) الجهبذ النقاد الخبير ـ موابذة فقهاء جمع موبذان (فارس) ـ الجَذَع مالم تنبت له أسنان وهو الذى دخل فى سن ثلاث سنين من الخيل ـ القارح من ظهرت أسنانه وهو الذى انتهى إلى خمس سنين .

(٢) الشنب : بريق الأسنان .

(٣) العناب : نبات أحمر .

فَزَحْزَحَتْ شَفَقًا غَشَّى سَنَا قَمَر   وسَاقَطَتْ لُؤلؤًا من خَاتمٍ عَطِرِ »[1]

تعدد القوافى فى البيت :

يهدف الحريرى قبل كل شىء إلى إظهار البراعة ، وفى المقامة الشعرية يلبب أبو زيد فتى يتضح فى آخر المقامة أنه ابنه ، ولكنّ أبا زيد يدعى أمام القاضى أنه رَبَّى هذا الفتى ، وكان جزاؤه أن الفتى يسرق شعره وينسبه إلى نفسه ، ويدلل على ذلك بأن ينشد عشرة أبيات أولها :

يا خَاطبَ الدُّنْيَـا الدَّنيَّة أنهـا   شَرَكُ الرَّدَى وقَرَارةُ الأكْدَارِ

دَارٌ مَتى ما أضحكتْ فى يَوْمِها   أبْكَتْ غَدًا بُعْدًا لها مِنْ دَارِ

ويسير على هذا المنوال ، ثم يدعى أن الفتى ادَّعى الأبيات لنفسه وأنشدها :

يـا خاطب الدنيـا الدنيّـــ   ـة إنهـــا شـــرك الـــرَّدَى

دار متـــى مــا أضحــكتْ   فــى يومهـــا أبكــتْ غــدَا

والأبيات التى أنشدها أبو زيد من بحر الكامل ، ويأتى البيت على ست تفعيلات :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن   متفاعلن متفاعلن متفاعلن

والأبيات المنسوبة إلى الفتى من مجزوء الكامل أى أن البيت يأتى على أربع تفعيلات فقط ، وقد جاءت التفعيلة الرابعة منتهية بدال بعدها ألف مقصورة ، أو بدال مفتوحة ، حتى تجىء الأبيات المجزوءة على قافية واحدة كما نرى ، وهكذا حتى آخر الأبيات العشرة .

---

(١) الشفق : الحمرة فى الأفق عند الغروب . ـ وغَشَّى : غَطَّى .

المدح ثم الذم :

ولإظهار المقدرة أيضًا يجعل الحريرى أبا زيد يمدح الشىء ثم يذمه ، كما نرى فى المقامة البكرية ، حيث يوازن بين البكر والثيب ، ويذكر مزايا كل منهما ، ثم يعود فيذمهما ويذكر عيوب كل منهما ، وفى ذكر مزايا البكر يقول : « أما البكر فالدرة المخزونة ، والبيضة المكنونة ، والباكورة الجنية ، والسلافة الهنية ، لم يدنسها لامِسٌ ، ولا استغشاها لا بسٌ ، ولها الوجه الوحى ، والطرف الخفى ، واللسان العيىّ ، والقلب النقى . . . » الخ .

ويقول عن الثيب : « وأمَّا الثيِّبُ فالمطية المذَلَّلَة ، والطبة المعللة ، والقرينة المتحببة ، والخليلة المتقربة ، والصناع المدبرة ، والفطنة المختبرة . . » الخ .

ثم يعود فيبين عيوبهما فيقول عن البكر : « المهرة الأبية العنان ، والمطية البطية الإذعان . . » الخ . ويقول عن الثيب : « فضالة المآكل ، وثمالة المناهل ، واللباس المستبدل ، والوعاء المستعمل . . » الخ .

الألغاز : وتضم المقامات كثيرًا من الألغاز نثرًا وشعرًا ، وكانت الألغاز مما شَاعَ فى ذلك العصر ، وقد تأتى هذه الألغاز فى صورة وَصْفٍ ، شعرًا أو نثرًا ، وقد تأتى فى صورة أسئلة تتطلب جوابًا . . وفى المقامة الدينارية يصف الدينار فى أبيات مادحًا إيَّاه مرة ، وذامًّا مرة أخرى ، وفى مدح الدينار يقول فى مطلع أبياته :

أكْـرِمْ به أصْفَرَ رَاقَتْ صُفْرَتُه   جَـوَّابَ آفـاقٍ ترَامَتْ سَفْرَتُـهْ

مَأْثُـورَةٌ سُمْعَتُـه وشُهـرتُـهْ   قد أُودِعَتْ سِرَّ الغِنَى أسِرَّتُـهْ » .

وفى ذم الدينار يقول فى مطلع أبياته :

تبـًّا بــه من خـادعٍ مُماذِقٍ   أَصْفـرَ ذِى وَجْهَيْن كالمُنافِـقِ

يَبْدُو بوَصْفَيْن لِعَيْنِ الرَّامِقِ   زِينَةِ مَعْشُوقٍ وَلَوْنِ عاشِقِ » (١)

وقد يأتى الوصف الملغز نثرا كما نرى فى المقامة المعرِّيه ، حيث وصف الإبرة والميل مُلْغزا ، فقال : « إنه كانت لى مملوكة رشيقة القَدِّ (٢) ، أسيلَة الخَدِّ ، صَبُورٌ على الكَدِّ (٣) تخُبُّ أحيانًا كالنَّهْد (٤) ، وترقدُ أطوارًا فى المهد(٥) ، وَتجِدُ فى تمُّوزَ (٦) مَسَّ البرد . . » الخ .

ويقول الفتى الذى استعار الإبرة فكسرها وأعطى الميل (٧) أَرْشًاها (أى عوضًا) ملغزًا عن الميل : « أما الشيخ فأصدق من القَطَا (٨) وأما الإفْضَاءُ فَفَرطَ عن خَطًا (٩) ، وقد رَهَنْتُهُ عن أرْش ما أوْهنْتُه (١٠) مملوكًا لى متناسب الطرفين (١١) منتسبا إلى القَيْن ، نقيًّا من الدَّرَن والشَّيْن (١٢) يقارن محله سواد العين . . » الخ

---

(١) مُماذِق : غير مخلص .

(٢) أى : رشيقة ، معتدلة القامة .

(٣) الأسيل : السهل الناعم ، والكدّ : الشدة فى العمل ، وطلب المكسب .

(٤) تخبُّ : تسرع . والنهد : الفرس . يعنى : تسرع أحياناً كالفَرس .

(٥) المهد : الفِراش ، والمراد به هنا : المِبْرَ .

(٦) أى : تجد فى شهر تموز ـ وهو شهر شديد الحراراة ـ تجد سحق المبرد .

(٧) الميل : ما يُكْحَلُ به الكحُل فى العين (المِرْوَد) .

(٨) القطا : طائر إذا طار يصيح : « قطاقطا » فيصدق فى صياحه بإخباره عن نفسه ، فضُرِبَ به المَثَل فى الصدق .

(٩) أى : عن غير عَمْد .

(١٠) الأرش : دية الجراحات . أوْهنتُه : أفسدته .

(١١) يعنى الميل (المرود) .

(١٢) القين : الحدّاد . والمراد بالدرن والشين : العيب عند التكحُل به .

وقد تأتى الألغاز فى صوره أسئلة يوجهها وينتظر حلها ، ولكنّ الحاضرين دائمًا يعجزون عن الجواب ، ويجيب أبو زيد فيبهرهم . . وهناك ألغاز تعتمد على لفظة من البيت تدل على معنى غير المعنى الشائع لها ، وقد وجه أبو زيد فى المقامة الشتوية أسئلة عديدة يحتوى كل منها على لغز من هذا اللون ، وبدأ الأسئلة بقوله :

« رأيتُ يا قوم أقوامًا غذاؤهم   بول العجوز وما أعنى ابنة العنب » .

وبول العجوز هنا لبن البقرة ، والعجوز أيضًا من أسماء الخمر ، ولذلك نفى أن يكون قد عنى ابنة العنب .

وفى المقامة البكرية يصف نعلاً وجدها وكأنها ناقة ضالة ، وهنا نوع من الإلغاز إذ يقول : « من ضلت له مطية حَضْرَميه وطية ، جلدها قد وسم وعرها قد حسم ، وزمامها قد ضفر ، وظهرها كأن قد كسر ثم جبر ، تزين الماشية ، وتعين الناشئة ، وتقطع المسافة النائية ، وتظل أبدًا لك مدانية ، لا يعتورها الونى ، ولا يعترضها الوجى ، ولا تحوج إلى العصا ، ولا تعصى فيمن عصا » .

الوصف : ونادرًا ما يصف وصفًا بعيدًا من الإلغاز ومن إظهار المهارة ، ونرى ذلك فى المقامة الحرامية ، حيث ذكر حنينه إلى البصرة وذهابه إليها ، وهنا راح يصف البصرة وما بها من عمران وازدهار ، وما تضمه من متناقضات بين مفتون بالدنيا ومنصرف إلى الآخرة ، وفى ذلك يقول : «وذات مساجد مشهودة ، وحِياضٍ مَوْرُودة ، ومبانٍ وثيقة ، ومغانٍ أنيقة ، وخصائص أثيرة ، ومزايا كثيرة .

بهـا مـا شِئْتَ مـن دين ودنيـا	وجِيـرانٍ تَنَافَـوْا فـى المَعَانـيِ
فمشغـُوف بـآيــاتِ المثـانـى	ومفتـونٌ بِـرَنّـات المثانـى (١)
ومُضْطَلِعٌ بتلْخِيص المعـانـى	مُطَّلِـعٌ إلـى تَخْليصِ عَـانـيِ (٢)
وكـم مــن قـارىء فيـها وقـار	أضـرا بالجفـون وبالجفـان (٣)
وكـم مــن مَعْلَـمٍ للعِلْـمِ فيهـا	ونَـادٍ للنَّـدَى حُلْـوُ المجانى (٤)
ومَغْنًـى لا تـزال تغـنُ فيـه	أغَـاريـدُ الغَـواني والأغـاني (٥)
فَصِـلْ إنْ شئتً فيها من يغنى	وَإمَّـا شِئْتَ فَـادْنُ مِنَ الدِّنانِ (٦)
ودُونَكَ صحبة الأكْيَـاسِ فيها	أو الكـاسـاتِ مُنْطَلِقَ العِنَـانِ » (٧)

المحسنات البديعة : وكان التصنيع فى تلك الفترة مقياس النبوغ ، ونرى الحريرى فى كثير من المواقف يتكلف ولا ينطلق على سجيته . . وفى المقامة المغربية يقول : « إلى أنْ جُلْنَا فيما لا يَستَحِيلُ بالانْعكَاس كقولِكَ : «سَاكِبُ كاسٍ » ، وما لا يستحيل بالانعكاس ، هو الذى لا يتغير إذا قرأناه ابتداء من الحرف الأخير ، وإذا قرأنا هذه الجملة بهذه الطريقة كانت «ساكب كاس » بدون تغيير .

ويقترح أحدهم أن ينظم البادىء ثلاث جمانات (أى كلمات نفيسة) وينظم الثانى أربع كلمات ، وهكذا ، ويقول الأول : « « لم أخامل » ،

---

(١) آيات المثانى : سورة الفاتحة . ورَنَّات المثانى : أصلها صوت الحُلِىّ أو غيره من المعانى ، وتوسع فى معناها فأطلقت على أوتار العود .

(٢) اضطلع به : قوِىَ على حَمْله . وتخليص العانى : فَكُّ الأسير .

(٣) الجفان : جمع جَفْنَة ، وهى الصَّحْفَة والوعاء .

(٤) المَعْلَم : العلامة والمجلس . والندى : الكرم والعطاء . والمجانى : الثمار التى تُجْنَى .

(٥) المَغْنَى : المنزل . والغَوانى : جمع غانية ، وهى التى استغنت بجمالها عن الزينة .

(٦) صِلْ , أعْطِ صِلَةَ .

(٧) أى : وعليك بمصاحبة العقلاء وذوى الفطنة . والمراد بالكاسات : المنهمكون فى الشرب واللهو .

ويقول الثانى : « كبر رجاء أجر ربك » وهكذا . . وإمعانًا فى إظهار افتنانه ينظم أبياتا على هذا النمط ، وأول هذه الأبيات :

« أُسْ أرْمَلاً إذا عَرا   وارْعَ إذا الْمَرْءُ أَسَا » [1]

ولا يقف الحريرى عند هذا ، بل إننا نرى فى المقامة القهقرية أبا زيد السروجى يقول : « أتعرفون رسالة أرضها سماؤها ، وصبحها مساؤها ، نسجت على منوالين ، وتجلت فى لونين ، إن بزغت من مشرقها فناهيك برونقها ، وإن طلعت من مغربها فيالعجبها ؟ » . ومعنى ذلك أن الرسالة تُقرأ من أولها وتُقرأ من آخرها ، ومطلع الرسالة : « الإنسان صنيعة الإحسان، ورب الجميل فعل الندب ، وشيمة الحرذ خيرة الحمد . . » وهكذا حتى يختم الرسالة بقوله : « وقبح الجفاء ينافى الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار » ، ويمكن أن نقرأ الرسالة ابتداء من آخرها فنقول : «الأسرار عند الأحرار ، وجوهر الوفاء ينافى الجفاء » . ونصل إلى أول الرسالة فنقرأ : « الحمد ذخيرة الحر ، وشيمة الندب فعل الجميل ، ورب الإحسان صنيعة الإنسان » .

بل إن الحريرى يُغرب فى هذه الألاعيب ، ويأتى بما يكدُّ الذهن ولا يهتدى إليه الفكر ، كما فى المقامة الملَطية حيث يقول : « حَتَّى أدَّتْنَا شُجونُ المفَاوَضَة ، إلى التَّحاجِى بالمقايضة ، كقَوْلِكَ : إذا عَنَيْتَ بِهِ الكَرَامَات : مَا مِثْلُ النَّوْمُ فَات » والمقايضة : المعاوضة ، أى مثلان يصلح كل منهما أن يكون عوضًا عن الآخر . . ويورد كلمة « الكرامات » ، وليست هنا جمع كرامة ، وإنما هى بمعنى الكرَى ، أى النوم ، ولذلك أتى بقوله : « النوم فات » .

(١) أُسْ أرْملاً : أغطِ مَنْ نفذ زادَهُ وافتقر . وارْعَ : من الرعاية . وأَسَا : من الإساءة .

ولا يدع الحريرى فرصة تظهر مهارته إلا استغلها ، وفى المقامة السمرقندية يجانس بين أواخر الأبيات ، فينظم سبعة أبيات تنتهى كلها بكلمة « دارا » ومن قوله :

« لا تَبْـكِ إلْفًا نـأى ولادَارَا ... وَدُرْ مع الدَّهْـر كيفَمـا دَارَا

وَاتَّـخِذِ الناسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا ... وَمَثِّل الأَرْضَ كُلهـــا دَارَا

واصْبِرْ على خُلْقِ مَنْ تُعاشِـرُهُ ... ودَارِهِ فاللَّبِيبُ مَـــنْ دَارَى

وفى المقامة الدمشقية يلجأ إلى الترصيع ، فيورد أبياتًا يلتزم فيها قوافى داخلية ، فقد نظم أبياتًا من بحر « المتقارب » جاء حرف الحاء رَوِيًّا لها ، والتزم فى كل بيت أن تنتهى التفعيلات الثانية والرابعة والسادسة بحرف واحد ، وهذا يولد موسيقى ظاهرة ، ومن قوله :

« لَزِمْتُ السِّفَارِ ، وجُبْتُ القِفَـار ... وَعِفْتُ النِّفَارَ ، لأَجْنِى الْفَرَحْ [1]

وخُضْتُ السُّيُولَ ، وَرُضْتُ الخُيولَ ... لجـرِّ ذُيُـولِ الصِّبَا وَالْـمَـرَحْ [2]

وَمِطْتُ الوَقَـارَ ، وبِعْتُ العَقَـارَ ... لِحَسْوِ العُقار ، وَرَشْفِ القَدَحْ [3]

البراعة اللغوية وحضور البديهة :

وفى المقامات كثير من الرسائل والخطب والأشعار التى تعتمد على البراعة اللغوية وحضور البديهة والقدرة على التأليف والتنسيق ، فمرة نرى أبا زيد يكتب رسالة إحدى كلماتها غير معجمة والثانية معجمة ، ومرة يكتب رسالة

---

(١) السِّفار : السَّفَر . وجُبتُ القفار : أى قَطَعْتُ الأماكن الخالية . لأجنى الفرح : لا حوز الفرح والسرور.

(٢) خُضْتُ السُّيُولَ : مشيتُ فيها ، مِنْ خاضَ المَاءَ ، إذا مشى فيه . ورضتُ الخيولَ : ركبتُها وذللتها .

(٣) مِطْتُ الوَقَارَ : نَزَعْتُ السَّكِينَة ، مِن أمَاطَ الشىءَ عنه ، إذا نَزَعَهُ وأزاله . والعَقَارُ بالفتح : الأرض والضياع ، وبالضم : الخَمْر .

أحد حروفها منقوط والثانى غير منقوط ، ومرة ثالثة يلقى خطبة خالية من الإعجام ، وفى المقامة المراغية يملى رسالة مطلعها : « الكرم ـ ثبت الله جيش سعودك ـ يزين ، واللؤم ـ غصن الدهر جفن حودك ـ يشين . . » إلخ . وهكذا تمضى الرسالة ، كلمة حروفها خالية من الإعجام ، يليها كلمة حروفها معجمة .

وفى المقامة الرقطاء تتوالى الحروف واحدًا غير منقوط ، والثانى منقوط . وفى مطلع الرسالة يقول : « أَخْلاقُ سَيِّدنَا تُحَبُّ ، وَبعقْوتِه يُلَبُّ [١] ، وقُرْبُه تُحَف ، ونأْيُه تَلَف [٢] . . » ويمزِّج الشعر بالنثر متبعًا النمط نفسه فيقول :

سَيِّـدٌ قُلَّبٌ سَبُوقٌ مُبِرٌّ فَطِنٌ مُغْرِبٌ عَزُوفٌ عَيُـوفُ [٣]

مُـخْلِفٌ مُتْلِفٌ أَغَرٌّ فَرِيدٌ نـابِهٌ فَاضِـلٌ ذكِيٌّ أَنُوفُ » [٤]

وفى المقامة السمرقندية يلقى خطبة دينية خالية من الإعجام مطلعها «الحمد لله الممدوح الأسماء ، المحمود الآلاء ، الواسع العطاء ، المدعو لحسم اللأواء . . » [٥] وكل هذا يكشف عن عقلية خصبة ومقدرة فائقة .

---

(١) بعقْوتِه ، أى : بفنائه . ويُلَبُّ : مِنْ أَلَبَّ بالمكان إذا أَقَامَ به .

(٢) تُحَف : جمع تُحفه ، وهى ما يُعجِب ويُسْتَمْلَح . ونأْيُه : بُعْدُه .

(٣) العَيُوف : المُبْغَض للرَّذائل ، مِنْ عافَ الطعامَ إذا كرِهَهُ . والمُغْرِب : الذى يأتى بالغريب العجيب . والعزوف : الراغب عن الدنايا .

(٤) مُخْلِفٌ مُتلف : أى ذو حماسة وسماحة . أنُوف : ذو أَنَفَة .

(٥) الأواء : الشِّدَّة .

المسائل الفقهية والنحوية

ضمت مقامات الحريرى مسائل فقهية وأخرى نحوية ، ووردت المسائل الفقهية في مقامتين هما : المقامة الفرضية ، والمقامة الطيبية ، أما المسائل النحوية فوردت فى مقامة واحدة هى المقامة القطيعية .

فى المقامة الفرضية يقابل أبو زيد شخصًا يتأوَّه وعيناه تهملان ، فيسأله أبو زيد : « إن لبكائك لِسرًّا ، ووراء تحرقك لشرًّا ، ويجيب الشيخ : « والله ما تأَوُّهِى من عيش فَات ، ولا من دهر افتات ، بل لانقراض العِلَم ودروسه ، وأفول أقماره وشموسه » ويسأله أبو زيد عن القضية المستعجمة ، فيبرز رقعة من كمه ، ويُعلن أنه عرضها على الأعلام ، فخر سوا خرس سكان المقابر ، وإذا المكتوب فيها :

« أيها العالـم الفقيـه الـذى فَـا … قَ ذكـاءً فمالَــهُ مِـن شَبِيــهِ

أفْتِنَـا فـى قضية حَـادَ عنهـــا … كُلُّ قاضٍ وحَارَ كُـلُّ فَقيــهِ

رجل مات عن أخٍ مسلمٍ حـُـرٍّ … تقــىٍّ مــن أُمِّــهِ وأبِيـــهِ

وَلَــهُ زَوْجَــة لها أيهـا الحِبْـــرُ … أخٌ خالِــصٌ بـلا تـمْـويـه

فَحَــوَتْ فَـرْضَهـا وحَازَ أخُوهَا … مــا تبقَّى بالإرْثِ دُونَ أَخِيـهَ

فاشْفِنَـا بالجـواب عَّمـا سَألْنَـا … فَهْوَ نَصٌّ لا خُلْفَ يُوجَدُ فِيه » .

وواضح أن السؤال والجواب من عمل أبى زيد ، ويملى أبو زيد الجواب على السائل فيقول :

« قُلْ لمن يُلْغِزُ المسائِلَ إنِّى كاشِفٌ سِرَّهَا الذى تُخْفِيه
إن ذَا الميتَ الذى قَدَّمَ الشَّرْعُ أَخَا عِرْسِهِ عَلَى ابْنِ أبِيه
رَجُلٌ زَوَّجَ ابْنَهُ عَنْ رِضَاهُ بحماةٍ لَهُ ولا غَرْوَ فِيهِ
ثُمَّ مَاتَ ابْنُهُ وقَدْ عَلِقَتْ مِنْهُ فجاءَتْ بابنٍ يَسُرُّ ذَوِيهِ
فهو ابنُ ابْنِه بِغَيْر مِرَاءٍ وأخُوِ عِرْسِه بلا تَمْوِيهِ
وابْنُ الابْنِ الصَّرِيحُ أَدْنَى إلى الجَدِّ وأوْلَى بارْثِه مِنْ أُخِيهَ
فلذَا حينَ مات أوْجَبَ لِلزَّوْ جِهِ ثُمْنُ التُّراثِ تَسْتَوْفيه
وحَوَى ابْنُ أبنه الذى هُوَ فِى الأَصْلِ أَخُوهَا من أُمِّهَا بَاقِيه
وَتَخَلَّى الأَخُ الشقيقُ من الإرْ ث وَقلنا يَكْفِيكَ أنْ تَبْكِيهِ
هَاكَ مِنِّى الْفُتْيَا التى يَحْتَذِيهَا كُلُّ قاضٍ يَقْضِى وَكُلُّ فِقِيه »

والحل أن الرجلَ زوَّج ابنه من زوجة أخرى بحماته الحالية ، وأنجب طفلاً ، فيكون هذا الطفل ابن ابنه وأخًا لزوجة الرجل ، فيرث عُصبةٍ ، لأنه ابن ابنه .

وفى المقامة الطيبةِ نرى الحارث بن همَام متوجهًا لزيارة قبر الرسول عليه السلام ، ومعه رفقة يقصدون مقصده ، وتمر الجماعة على أحد الأحياء ، فيجدونهم ملتفين حول شخص يتضح أنه أبو زيد ، وهو يقول : « سلونى عن المعضلات واستوضحوا منى المشكلات ، ويتقدم إليه أحد الفتيان ويُوجه إليه أسئله تبلغ حوالى مائة مسألة ، ويجيب أبو زيد عنها إجابات

فورية . . والمعضلات هنا تكمن فى اللغويات ، حيث يورد كلمات تحمل معانى غير المعانى الشائعة لها ، وتلك المعانى الخفية هى المرادة ، مثل قوله : « أيجوز الوضوء مما يقذفه الثعبان ؟ قال : وهل أنظف منه للعريان ؟ » والثعبان جمع ثعب وهو مسيل الوادى » .

أما مسائل النحو فقد وردت فى المقامة القطيعية ، وجاء فيها : أن الحارث كان يجلس فى رفقة ودخل عليهم أبو زيد ، وغنى مطربهم أبياتًا منها :

« فَــإِنْ وَصْلاً أَلَــذُّيــهِ فَوَصْــلٌ وَإِنْ صَرْمًــا فَصَــرْمٌ كَالطَّــلاق »

وتتساءل الجماعة : لم نصب الوصل الأول ورفع الثانى ؟ ويختلفون ، ويجيب أبو زيد : « إنه ليجوز رفع الوصلين ونصبهما والمغايرة فى الإعراب بينهما . وجوَّز سيبويه الأوجه الأربعة واختار نصب الأول ورفع الثانى على تقدير : « فإنْ كان عمله خيرًا فجزاؤه خير » فتنصب الأولى على أنها خبر كان ، وترفع الثانية على أنها خبر مبتدأ محذوف .

ويلقى أبو زيد أسئلة على الجماعة تبلغ اثنى عشر سؤالا تدور حول مسائل نحوية وهلم جرًّا .



الفكاهة

تظهر فى مقامات الحريرى قدرته على تصوير المواقف الفكهة ، وإجراء الحوار الفكه ، ويتجلى ذلك فى المقامة الصورية والمقامة العمانية والمقامة التبريزية .

ففى المقامة الصورية يشاهد الحارث بن همام جماعة متجهين إلى حفل زواج فيصحبهم ويدخلون دارًا واسعة الفناء ، تفضى بهم إلى دهليز مجلل بأطْمار ممزقة ، وينادى منادٍ : « لا عقد هذا العقد المبجل ، فى هذا اليوم الأغر المحجل ، إلاَّ الذى جَالَ وجَاب ، وشب فى الكُدْيَة وشَاب » ويبرز أبو زيد ويلقى خطبة يحث فيها على البذل والعطاء ، ويعلن مشروعية النكاح فى دين الله ، ثم يصف العروسين وصفًا مليئًا بالفكاهة يظهرهما فى قمة الوقاحة ، ويحدد المهر بأنه مخلاة وعكاز وغطاء للرأس ، ثم يدعو بأن يُكْبِرَ الله فى المصاطِب نسلهما .

ومن قوله : « وهذا أبو الدَّرَّاج ، وَلاَّجُ بْنُ خَرَّاج ، ذو الوَجْه الوَقَاح ، والإفْكِ الصُّرَاح ، والهَرِيرِ والصَّيَاح ، والإبْرَام والإلْحاح ، يخطبُ سَلِيطَةَ أهْلِهَا ، وشَرَيْطة بَعْلِهَا ، فَنْبَسُ بنتُ أبى العَنْبَسِ ، لمَا بَلغَهُ مِنَ التحاقِها بإلْحَافِها ، وإسْرَافِهَا فى إسْفَافِهَا ، وانكماشِهَا على مَعَاشِها ، وانتعاشِها عند هِرَاشِهَا ، وقد بذل لها من الصداق شَلاَّقًا ، وُعكَّازًا ، وَصقاعًا ،

وكرَّازًا[1] ، وأَسألُه أن يُكثِرَ فى المَصَاطِب نسْلَكُم . ويَحرُسَ من المعاطِب شَملكُمْ » .

وفى المقامة العمانية يركبون البحر ، وتشتد الرياح فينزلون جزيرة ، وينفد زادهم ، فيدخلون قصرًا يجدون على بابه زمرة من العبيد فى حُزْن شامل ، ويعرفون منهم أن رب هذا القصر وهو قطب هذه البقعة بشَّر بحمْل زوجته بعد حِرْمَانٍ طويل ، ولما حان الوضع عسر المخاض ، ويبشرهم أبو زيد ويقول لهم : « عندى عزيمة الطلق ، التى انتشر سمعها فى الخلق » ويفرح صاحب القصر ويستقبل أبا زيد ، ويستحضر أبو زيد قلما ويكتب :

« أَيُّهَـذَا الجنينُ إنِّـى نَصِيـحٌ	لكَ والنصحُ مِـنْ شُروطِ الدِّينِ
أنتَ مُسْتَعِصـمٌ بِكِـنٍّ كَنِين	وقَـرارٍ مِـنَ السُّكُـون مَكِيـنِ
مـا تَرى فيه مـا يَـرُوعُـكَ مِـنْ	إلْـف مُـداجٍ وَلاَ عَـدوٍّ مُبيـنِ
فَمَتَـى مـا بَـرَزْتَ مِنْـه تَحوَّلْتَ	إلـى مَنْـزِلِ الأذى وَالْـهُـونِ
وتَـراءَى لَكَ الشَّقـاء الـذى	تَلْقَـى فتبكـى لـه بدمْـعٍ هَتُـونِ
فَـاسْتَدِمْ عَيْشَكَ الرغيدَ وحَـاذِرْ	أن تَبِيـعَ المحقـوقَ بِـالْمَظْنُـونِ
وَاحْتَرِسْ مِنْ مُخَادِعٍ لكَ يَرْقِيـكَ	ليُلْقِيـكَ فـى العَـذَابِ الهُـونِ
ولَعَمْـرَى لَقَـدْ نصحْتُ ولكِـنْ	كَـمْ نَصِيـحٍ مُشَبَّـهٍ بظِنِـينِ »

هذا الشعر الفكِه يدعو الطفل إلى عدم الخروج إلى الدنيا ويكشف له عن المساوىء وتلد الماخِضُ طفلاً يُسْعِدُ أباه ويملأ البيت سرورًا .

أما المقامة التبريزية فتبدو فيها الفكاهة فى الأحداث ، وفى طريقة

---

(١) الشَّلاَّق : شبه المخلاة . والصَّقاع : رداء تجعله المرأة على رأسها . والكرَّاز : القارورة .

عرضها، حيث يتوجه أبو زيد وزوجته إلى القاضى ويتظاهران بأنهما مختلفان ويتشاتمان فى بذاءة وسلاطة ، ونقتبس من هذه المخاصمة بعض العبارات :

« فزفر أبو زيد زفير الشواظ ، واستشاط استشاطة المغتاظ ، وقال لها : ويلك يا دفار يا فجار ، يا غصة البعل والجار ، وقد علمت أنى حين بنيتُ عليك ورنوتُ إليكِ ألفيتُكِ أقبح من قردة ، وأيبس من قِدَّة [1] ، وأخشن من ليفة ، وأنتن من جيفة . . الخ » . فتذمرت المرأة وتنمَّرتْ ، وحسرتَ عن ساعدها وشَمَّرَتْ وقالت له : « ياألأَمَ مِنْ مَادِر [2] ، وأشأم من قاشر ، أترمينى بِشَنَارِكَ [3] وتَفْرِى عِرْضِى بشِفَارِك ؟ وأنت تعلم أنك أحقر من قُلامة [4] ، وأعيب من بغلة أبى دلامة . . » الخ .

وكان هذا الخصام تمثيلية يبغيان من ورائها أن يمنحها القاضى شيئًا من المال .

---

(١) القِدَّةُ : الجلدة اليابسة . وهذا التعبير هو من أمثال المولّدين .

(٢) مَادِر : رجل بخيل لئيم .

(٣) أى بعارِكِ وعيبك .

(٤) قُلامة : ما يُقَصُّ من الظفر ويُرْمَى .



ملامح مسرحية

بعض المقامات التى كتبها الحريرى تصلح أن تكون مسرحية فكاهية من فصل واحد ، وتحوى الحوار الشائق ، وفيها العقدة ، وإن كانت ساذجة ، وفيها الحل النابع من الحدَث ونعرض هنا لمحات عن هذه المسرحيات .

المقامة البرقعيدية :

وفيها يتظاهر أبو زيد بالعَمَى ، وتجرُّه امرأته العجوز، ويعطيها من مخلاته رقاعًا مكتوبة بألوان الأصباغ تُقدمها إلى الناس، وفيها أشعار مؤثرة ، ويأخذان ما يجود الناس به .

المقامة الإسكندرية :

وفيها يقصد إلى حاكم الإسكندرية ، وتدعى المرأة أنها من أُسرة كريمة ، وأن هذا الرجل خطبها وادعى أنه صاحب دُرَر وتزوجها ، ولكنه باع أساس بيتها وزعم أن صناعته كسَدَتْ ، وسأله القاضى ، فأنشد أكثر من ثلاثين بيتًا أعلن فيها أن صناعته الأَدَب ، وأن ألفاظة دُرَرٌ ، وتأثر القاضى ، وفرض لهما فى الصدقات ، وأخذ المحتال يصفق بيديه ، ويخالف بين رجليه ويغنى . .

المقامة المعَرِّيَّة :

وفيها يدخل إلى قاضِى معرة النعمان شيخٌ ومعه غلام وسيم ، ويدَّعى

الشيخ أن الغلام اغتصب مملوكة له كان قد طلب استخدامها فأخدمه إيَّاها بلا عِوَض ، ولكنه اغتصبها ، ويفيض فى وصف المملوكة ، وأخيرًا يتضح أن الفتاة ما هى إلا إبرة استعارها واستعملها فكسرها ، وينالان العطاء .

المقامة الزبيدية :

وهـى تصلح أن تكون مسرحية من فصلين ، ففى سوق العبيد يعرض أبو زيد غلامًا للبيع ، ويفيض فى مَدْحه ، ويعلن العبد أنه يُوسُف ، ويشترى الحارث الغلام ، ويقبض أبو زيد الثمن وينصرف ، ثم يعلن الغلام أنه حر ، ويتنازعان ، ويذهبان إلى القاضى ، ويعلن الغلام أنه أنذَرَ الرجل وقال له : « أنا حُرٌّ كيوسف عليه السلام ، ويحكم القاضى بحريةً الغلام .

المقامة الحجرية :

ويظهر أبو زيد حَجَّامًا ، ويحضر فتى يريد الحجامة، ولكنه مفلس ، ويطلب إمهاله حتى اليُسْر ، ويرفض الحجَّام ، ويشكو الغلام للناس ، ويذم الحجام ، فيعطفون عليه ويقدمون له المال ، ثم يتضح أن الغلام ابنه .

الأسلوب

يجمع أسلوب الحريرى فى مقاماته بين السَّرْد والحوار ، والسرد هو السائد، فهو يبدأ كل مقامة بقوله : « حَدَّثَ الحارث بن همام ،أو رَوَى ، ثم يسرد المقامة . أما الحوار فيأتى بين الحارث وأبى زيد ين يسأله الحارث عن بلده أو عن شأنه ، أو حين يظهر الحاضرون إعجابهم بفصاحة أبى زيد، أو حين يسألهم أبو زيد متحديًا : هل تستطيعون أن تأتوا بكذا؟ .

وقد يكون هذا الحوار موجزًا لمجرد التعارف ، وقد يطول بين المتحاورين، ولكنه لا يهتم بتحليل نفسية الأشخاص ، وإنما يهدف إلى بيان مقدرة أبى زيد السروجى الذى يعبر عن الحريرى ، كما نرى فى المقامة الحلوانية ، حيث يعيب أبو زيد شعر البحترى وينشد أبياتًا له يعلن فيها أنه أشعر من البحترى ، وفى مواقف أخرى يظهر براعته فى الألاعيب اللغوية حيث يملى رسالة إحدى كلماتها معجمة الحروف والثانية غفل من الإعجام ، وما ماثل ذلك .

وقد يجرى الحوار بين أطراف متعددة ، وهنا يطول الحوار ويكشف أحيانًا عن نفسيات هؤلاء الأشخاص ، كما نرى فى المقامة الرحبية ، حيث يشترك فى الحوار أبو زيد وابنه والوالى ثم الحارث بن همام ، ويدَّعى أبو زيد أن هذا الغلام قتل ابنه ، ويُظْهِرُ الحوارُ فَسَادَ أخلاق الوالى ، ودهاء أبى زيد وابنه .

وجاء أسلوب المقامات صورة لأسلوب الكتابة فى القرن الخامس

الهجرى، فجاء ملتزمًا للسجع ، حيث كان السجع أحد مقاييس البراعة الفنية ، ولا نكاد نجد جملتين غير مسجوعتين ، وقد تصل السجعات إلى ست ، كما نرى فى قوله فى المقامة الدمشقية : « أُقْسِمُ بالسَماءِ ذات الأبراج ، والأرض ذات الفِجَاج ، والماء الثَّجَّاج ، والسِّراج الوهَّاج ، والبحر العَجَّاج، والهَوَاءِ وَالْعَجَاج »[1] .

وقد يراعى هذه الموسيقى داخل الجملتين كَمَا نرى فى المقامة المراغية إذ يقول : « الكرم ـ ثبت الله جيش سعودك ـ يزين ، واللؤم ـ غض الله جفن حسودك ـ يشين » وهنا اتفاق موسيقى بين الكرم واللؤم ، وبين سعودك وحسودك ، وبين يزين ويشين . . وفى المقامة الشعرية يراعى اتحاد التفعيلة الرابعة فى الدال المفتوحة فى الأبيات كلها وذلك ليمكن ابنه من أن يتناول الأبيات ، ويقتصر على أربع تفعيلات ، وتتحد القافية فى جميع الأبيات ـ كما مَرَّ بنا منذ قليل ـ على النحو التالى :

« يــا خَاطِبَ الدُّنْـيَا الدنية إنها شرك الرَّدَى وقرارة الأكــدَارِ
دَارٌ مَتَى ما أضحكَت فى يومها أبكَتِ غدًا بُعْدًا بها مِنْ دارِ »

ويقول ابن أبى زيد :

« يـا خاطبَ الدُّنيَا الدَّنِيَّةَ إنَّهَـا شَــرَكُ الــرَّدَى
دَارٌ مَتَـى مــا أضحكَت فــى يومِهَا أبكَت غَـدًا »

ويهتم الحريرى اهتمامًا كبيرًا بالجناس ، ونرى الجناس أكثر المحسنات البديعية شيوعاً فى مقاماته ، ومن ذلك قوله : « أرعَى الجارَ ولَوجَارَ ، وأبذل الوصَالَ لمن صَال » .

---

(١) العجاج ، بالتخفيف : الغبار الثائر من الهواء . والعَجَّاج : الصوت المرتفع .

وقد يأتى الحريرى بثلاث كلمات متفقة فى الحروف مختلفة فى المعنى ، وفى المقامة الشعرية يقول الحاكم بعد أن خدعه أبو زيد وهرب مخاطبًا الحارث بن همام : « ألست الذى أعاره الدست ؟ » ويجيب الحارث : « لا والذى أحلك فى هذا الدست ، ما أنا بصاحب ذلك الدست ، بل أنت الذى تم عليه الدست » ، الدست الأول مُعرب بمعنى اللباس ، والثانى صدر المجلس ، والثالث بمعنى دست القمار .

ويهتم الحريرى بالجناس فى الشعر أيضًا ، وفى المقامة البرقعيدية يوزع أبو زيد رقاعًا يطلب فيها العون ، وفيها قصيدة يحوى كل بيت منها جناسا ، وفى مطلعها :

« لقد أصْبَحْتُ مَوْقُوذًا بأَوجَاعٍ وَأَوْجَال[1]
وَمَمْنُوًّا بِمُخْتَالٍ ومُحْتَالٍ ومُغْتَالَ »[2]

ويلى الطِّباق والمقابلة الجناس فى الكثرة ، ومنه قوله : « ابْيَضَّ شَعْرِى الأَسْوَد ، وَاسْوَدَّ يومى الأبيضُ » .

وفى المقامة الدمشقية ينشد أبياتًا فى الطرب ويهتم فيها بالترصيع ، ومطلع الأبيات :

« لزمتُ السِّفَار ، وجُبتُ القِفَارَ وعِفْتُ الديارَ ، لأَجْنِى الفَرَح »

ومن النماذج السابقة يتضح أن الحريرى يمزج بين الشعر والنثر فى مقاماته وفى أحاديثه .

---

(١) موقوذًا : مَضْرُورًا . الأوجال : المخاوف .
(٢) مَمْنُوًّا : مُبْتَلَى .

ويكثر الحريرى من الاقتباس من القرآن الكريم ، وتضمين الأمثال والحكم ، ومن الاقتباس من القرآن قوله : « وأخرجنى من ظلمات الظالمين ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

ومن الأمثال التى وردت فى مقامات الحريرى قوله يخاطب ابنه : « قُمْ يا بنى كما قام أبوك ، وفُهُ بما فى نَفْسِكَ لا فُضَّ فُوكَ » . . ومن الحِكَم قوله : « عند الامتحان يُكْرَمُ المرءُ أوْ يُهان » .

وَيضمِّن أبو زيد مقاماته شطرات من أبيات الشعر وعندما باع أبو زيد ابنه إلى الحارث على أنه عبد ، انشد الغلام أبياتًا منها :

« على أنى سأنشدُ عنْدَ بِيْعِى أَضَاعُونِى وأَىَّ فَتًى أَضَاعُوا »

والشطر الثانى من بيتٍ لعبد الله بن عمر الشهير بالعَرَجِىّ ، والبيت :

أَضَاعُونى وأَىَّ فَتًى أَضَاعُوا ليــوم كَريهَـةٍ وسَـدادِ ثَغْـرِ

وقد يأخذ شطرًا ويورده ضمن النثر . . وفى حديث بين أبى زيد وابنه يقول لأبيه : « ولأقتدينَّ بآثارِكَ الواضحة ، حتى يقال : ما أَشْبَهَ اللَّيْلَة بالبارِحَة» وهو مأخوذ من قول طَرَفة :

« كلهـم أرْوَغ مـن ثعلب مـا أشبـه الليلـة بالبـارحـة »

ويرد عليه أبوه : « من أشبه أباه فما ظَلَمَ » ، وهو مأخوذ من قول رُؤْبَة :

« بأَبِهِ اقْتَدَى عَدِىٌّ فى الكَرِمْ ومـَنْ يُشَابِـهُ أَبَـهُ فمـا ظَلَـم »

وأسلوب الحريرى متين النسج ، بعيد من الخطأ ، ملىء بالكلمات المعجمية الغامضة ، وقد مرت بنا نماذج عديدة من ذلك .

وترد فى مقامات الحريرى كلمات غير عربية . . ففى المقامة المراغية

وردت كلمة « موابذة » جمع مُوبَذ وموبذان ، وهو حاكم المجوس ، واستعيرت لكبار القوم .

وفى المقامة الصورية وردت كلمة « المدروزون » وهم الذين يتعرضون للصناعات الخسيسة «فارسية معربة » وفى المقامة الشعرية وردت كلمة «الدَّسْت » وهى فارسية بمعنى اللباس ، وبمعنى صدر المجلس . . وفى المقامة النصيبية وردت كلمة « مغناطيس » ، وفى المقامة الواسطية وردت كلمة « البنج » .

وترد المصطلحات العلمية والفقهية والنحوية ، ولا يهتم الحريرى بالألفاظ الرقيقة إلا فى مواقف قليلة ، كما نرى فى وصفه للبِكْرِ مَادِحًا ، حيث يقول : « وأمَّا البِكْر فالدُّرَّة المخزونة ، والبيضة المكنونة » .

وترد الجمل الاعتراضية للدعاء فى النثر وفى الشعر ، كما فى قوله : « الكرم ـ ثبت الله جيش سعودك ـ يزين ، واللؤم ـ غض الله جفن حسودك ـ يشين » . ويقول :

« لا تحقرن ـ أبيت اللعن ـ ذا أدب لأن بدا خلق السِّربَال سُبْرُوتا » .

وأبيت اللعن تحية موروثة عن الجاهلية ، كانت تُقال للملوك .

وترد فى المقامات أساليب القسم المعهودة ، ويزيد الحريرى على ذلك أنه يقسم بأشياء نابعة من المواقف التى يتحدث عنها ، فيقول : وحرفة ساسان أستاذ الأستاذين » ، وفى مواقف الحب يقسم بالجمال فيقول : « والذى زين الجِبَاه بالطرر ، والعيون بالحَور ، والحواجب بالبلج ، والمباسم بالفلج . . »

ويكثر الحريرى من الإشارات التاريخية والأدبية ، ويورد أسماء شخصيات من مختلف العصور العربية ، فيذكر السَّمَوْأَل ، وابن ماء

السماء من الجاهلية ، ويذكر سلمان الفارسى ، وابن عباس من العصر الإسلامى ، ويتحدث عن غيلان (ذى الرُّمَّة) وعمرو بن عبيد من العصر الأموى ، ويورد من النساء بلقيس والزَّبَّاء ورابعة العدوية والخنساء .

وتكثر الصور البيانية فى مقامات الحريرى ، وبعض هذه الصور مطروق كقوله : « أطوف مثل الهائم » وأحيانًا يورد تشبيهات متوالية ، كقوله : «وْأَمَّا البكر فالدرة المخزونة والبيضة المكنونة والباكورة الجنية ، والسلافة الهنية . . » .

وهناك صُوَر يظهر فيها التأثر بالإسلام ، كقوله : « وجرابى كفؤاد أم موسى » . ويقول ابن أبى زيد حين باعه أبوه على أنه عبد :

« إن كان لا يرضيك إلاّ كشفه   فأصخ له أنا يوسف أنا يوسف »

يُشَبِّهُ نفسه بيوسف عليه السلام حين باعوه على أنه عبد مع أنه حر.

وبعض التشبيهات تظهر فيها روح العصر العباسى ، فهو يشبه الكلمات النفيسة بالجمانات فى العقد ، فيقول : « على أن ينظم البادىء جمانات فى عقده » ،

ونرى التشبيهات العلمية حيث يقول : « فإنَّ مُناجاتكم قُوتُ نفسى ومغناطيس أنْسِى » يشبه بالمغناطيس وهو تشبيه علمى . . ومن اللفتات الواعية قوله : « فولجتُ الدار كما يلج العصفور القفص » ، وهنا التفات إلى ما يعانيه العصفور من آلامٍ نفسية عند دخوله القفص .

الهـــدف

كان الحريرى يهدفُ حين كتَبَتَ مقاماته إلى هدفين ، هما : الفخر ، وتعليم اللغة .

أولاً ـ الفخر بمواهبه :

فقد كان الحريرى رجلاً مثقفًا ، وكان ذا مقدرة لغوية فائقة ، وكان واثقًا بنفسه ، فخورًا بها ، وأَنْطَقَ أبا زيد السروجى بلسانه ، وجَعَلَ أبا زيد يُوَجِّه الأسئلة المعجزة إلى مُجَالِسيهِ ، ويكتَب ، ويخطب ، ويرتجل الأشعار ، ونال إعجابَ الرؤساء والأدباء وعامة الناس ، وطبَّقَتَ شهرته الآفاق .

ثانيا ـ تعليم اللغة :

كان الحريرى عالمًا لغويًّا ، وكان العلماء يهدفون إلى المحافظة على اللغة قوية سليمة ، وكانوا يهدفون إلى تعليم الناشئين اللغة الفصيحة ، وأحسب أن الناس كانوا يتوقون إلى ذلك ، فقد كانوا يرون فى الماضى العربى مثلاً أعلى، وفى اللغة العربية الفصيحة ، لغة القرآن ولغة الأجداد ، ونرى هذه المقامات زاخرة بالألفاظ المعجمية التى أظهرت سَعة اللغة العربية ووفاءَها بما يحتاجه الأديب والعالم .

كتاب درة الغواص فى أوهام الخواص

يتضح من العنوان أن الكتاب يغوص فى جوهر المسائل ويستخرج الدرر، ويقع الكتاب فى تسع ومائتى صفحة ، وليس فى الكتاب أبواب ولا فصول ، ولا عناوين جانبية ، وعندما يورد بيتًا من الشعر يذكر البحر ، ويبدأ المؤقف بحمد الله والصلاة على نبيه ، ويعلل لتأليف هذا الكتاب بأن كثيرين ممن تَسَنَّمُوا الـرتَبَ قد ضاهوا العامة فى بعض ما يفرط من كلامهم ، ويقـول : « فألفت هـذا الكتاب تَبْصِرَةً لمـن تَبَصَّرَ ، وتذكـرة لمن أراد أن يذّكر » .

ويلتزم الكاتب السجع بين كل جملتين ، ويقول : « وأودعته من النخب كل لباب ، ومن النكت مالا يوجد منتظما فى كتاب ، هذا إلى ما لمعته به من النوادر اللائقة بمواضعها ، والحكايات الواقعة فى مواقعها . . ويتحدث الكتاب فى موضوعات نحوية عديدة ، كأسم الفاعل والمفعول ، ومعظمه يتحدث فى اللغويات .

ويورد الحريرى الألفاظ الشائعة التى تدور على الألسنة ، ويورد تصويبها ، ويبدأ بقوله : « فمن أوهامهم الفاضحة ، وأغلاطهم الواضحة، أنهم يقولون : قدم سائر الحاج ، واستوفى سائر الخراج ، فيستعملون لفظ «سائر » بمعنى الجميع ، وهى فى كلام العرب بمعنى الباقى ، ومنه قيل لما يتبقى فى الإناء « سُؤْر » : ويوغل الحريرى فى

الاستدلال لآرائه فيورد أحاديث النبى عليه السلام ، وأبياتًا من الشعر ، وفى هذه المسألة يستشهد بقول النبى عليه السلام لغيلان حين أسلم وعنده عشر نسوة : « اخْتَرْ أربعًا منهن وفارِقْ سائرهن » أى : مَنْ بقى بعد الأربع . ثم يستدل ببيت لسيبويه ، وببيت للشنفرى ، وسنكتفى هنا بإيراد المسائل المهمة التى تدور على ألسنتنا ونتحدث عنها فى إيجاز .

ينبه الحريرى إلى خطأ من يقول : « أزف وقت الصلاة » بمعنى حَضَر ، لأن معنى أزف اقترب ، ويستدل بقوله تعالى : « أزِفَتِ الآزفة » أى اقتربت الساعة . ويقول : « المقيل » الاستراحة وقت الهاجرة ، و « السمر » حديث الليل خاصة ، و « الطروق » الإتيان ليلا ، و « الإدْلاج » سير أول الليل ، و« السُّرى » سير الليل خاصة .

ويقول الحريرى : « ومن أوهامهم فى هذا الفن قولهم : لا أكلمه قط ، وذلك أن العرب تستعمل لفظة « قط » فيما مضى من الزمان ، كما تستعمل لفظة « أبدًا » فيما يستقبل .

ويقولون لما يُقَدَّمُ عليه الطعام « مائدة » والصحيح أن يُقال له : « خوان» إلى أن يحضر عليه الطعام فيسمى مائدة ، ولا يُقال للقَدَح كأس إلاَّ إذا كان فيها شراب ، ولا للإناء كوز إلاَّ إذا كانت له عروة ، وإلاَّ فهو كوب ، ولا للمجلس نادٍ إلا وفيه أهله ، ويقولون : بعثت إليه بغلام وأرسلت إليه هدية فيخطئون فيهما ، لأن العرب تقول فيما يتصرف بنفسه : بعثته وأرسلته . . ويقولون فيما يحمل : بعثت به وأرسلت به ، ويجيبون المستخبر عن الشىء بلا النافية ، ويعقبون بالدعاء له ، وهنا نأتى بالواو فنقول : «لا، وَعَافَاكَ الله» .

وقولهم : « اجتمع فلان مع فلان » خطأ ، والصواب : اجتمع فلان

وفلان ، لأن افتعل وتفَاعَل يقتضى وقوع الفعل من أكثر من واحد ، والواو تدل على الاشتراك . ويقولون : فعل الغير ذلك ، والمحققون يمنعون من إدخال الألف واللام على « غير » ، لأنها لا تَتَعَّرفُ ، ويقال فى النصف الأول من الشهر إلى منتصفة : حَلَتْ وخَلَوْنَ ، وفى النصف الثانى من الشهر: بَقِيَتْ وبَقِينَ . والسهر فى المكروه والمحبوب ، والأرق فى المكروه فقط ، والرؤية لما يُرى فى اليقظة ، والرؤيا لما يُرَى فى المنام ، ويقال : أَبْصَرْتُ بالعين ، وبَصُرْتُ من البصيرة . ويقال : أخطأ فهو مخطىء ، لمن لم يتعمد الذنب ، وخطىء فهو خاطىء للمتعمّد . ونبه الحريرى إلى أن مستهل الشهر الليلة الأولى فقط .

ملحة الإعراب وشرحها

ملحة الإعراب منظومة فى النحو كتبها الحريرى ، ثم شرحها .

وافتتح الملحة بالأبيات :

« أقولُ من بعد افتتاح القَوْلِ بحمد ذى الطَّوْلِ شديدِ الحَوْلِ

وبعده فأفضل السَّلام على النبى سَيِّدِ الأنامِ

وآله الأطهار خير آل فافهم كلامى واستمع مقالِي

يا سائِلِى عن الكلام المنتظم حَدًّا ونَوْعًا وإلى كَمْ ينقسم ؟ »

***

ثم راح ينظم قواعد النحو .

ويجعل الحريرى الملحمة أبوابًا ، ويُعَنْوِنَ لكل باب بعنوان ، وتأتى الأبيات كلها على بحر الرَّجَز ، وهو بحر يغلب على المتون العلمية ، ووزنه :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

وتأتى الأبيات على نظام المزدوج ، وهو الذى يتفق الشطران فيه فى الحرف الأخير ، وعدد أبيات الملحمة خمسة وسبعون ومائتا بيت ، وتنقسم ملحة الإعراب ستين بابًا هى :

باب الكلام ، باب الاسم ، باب الفعل ، باب الحرف ، باب النكرة والمعرفة ، باب التعريف ، باب قسمة الأفعال ، باب الأمر ، باب الفعل المضارع ، باب الإعراب ، باب التنوين ، باب الأسماء التى تسمى المعتلة ، باب حروف العلة ، إعراب الاسم المنقوص ، باب المقصور من الأسماء ، باب التثنية ، باب جمع التصحيح ، باب جمع المؤنث السالم ، باب جمع التكسير ، باب حروف الجر ، باب القَسَم ، باب الإضافة ، باب المضاف ، باب كَمْ الخبرية ، باب المبتدأ ، باب اشتغال الفعل بما يلحقه من الضمائر ، باب الفاعل ، باب مالم يسم فاعله ، باب المفعول به ، باب ظننت وأخواتها ، باب عمل اسم الفاعل المنون ، باب المصدر ، باب المفعول له ، باب المفعول معه ، باب الحال ، باب التمييز ، باب نعم وبئس ، باب حَبَّذَا ، باب كم الاستفهامية ، باب الظرف ، باب الاستثناء ، باب « لا » فى النفى ، باب التعجب ، باب الإغراء ، باب التحذير ، باب إنَّ وأخواتها ، باب كان وأخواتها ، باب ما النافية الحجازية ، باب النداء ، باب الترخيم ، باب التصغير ، باب الحروف الزوائد ، باب النسب ، باب التوابع ، باب مالا ينصرف ، باب العدد ، باب نواصب الأفعال ، باب الحذف (ويقصد به الأفعال الخمسة) ، باب الجوازم ، باب البناء .

ويختم الملحة بأبيات سبعة يشيد فيها بالملحة ، ويحمد الله ويصلى على نبيه . وشرحه لأبيات الملحة شرح وافٍ ، ومن قوله فى (باب الفاعل) : الفاعل عند النحويين كل اسم تقدمه فعل مقر على صيغته . وجعل الفعل حديثا عنه ، سواء فعله على الحقيقة كقولك : قام زيد ، أم فعله مجازًا كقولك : بنت الزرع ، واشتدَّ الحرُّ ، أو لم يفعل شيئًا كقولك : ما قام زيد ولا خرج عمرو ، وإنما شرط فى الفعل أن يكون مقرًّا على صيغته ، وهو

معنى قولنا فى الملحة : (سالم البناء) ليفصل بينه وبين مالم يُسَمَّ فاعله . وذلك قولنا :

« وكل ما جـاء من الأَسْمَاء   عقيب فعـل سالِـم البناءِ

فارْفَعْهُ إذْ تعرب فهو الفاعـل   نحو جرى الماء وجاز العامل »

ويهتم الحريرى باللغويات ، ومن قوله : الحد ما يمنع المحدود من الخروج عمَّا حد به ، ويمنع غيره من الدخول فيه ، ومنه اشتقاق حدود الدار، والحد فى اللغة المنع ، وفى باب الكلام يقول :

حَدُّ الكلامِ ما أفادَ المستمع   نحو سعى زيد وعمرو متبع

ويعلل للمسميات فيقول هنا : الاسم مشتق من السمو ، وإنما سمى اسماً لأنه لما استغنى عن الفعل والحرف سَمَا عليهما . . ويستشهد بالقرآن الكريم وبأبيات من الشعر لتأكيد القاعدة فيقول مثلا : فجعل بعضهم المثنى بالألف فى جميع أحواله ، وعليه حمل بعضهم « إنَّ هَذَانِ لسَاحِرَانِ» ومنه قول الشاعر المتلمِّس :

« فأطرق إطراقَ الشجاع ولورأى   مساغًا لناباه الشجاع لصَّمَما »

وملحة الإعراب للحريرى تسبق ألفية ابن مالك بسنوات طويلة ، وأحسب أن ابن مالك استفاد منها حين نظم ألفيته .

الفهـــرس